

العنوان:	مناظرات ابن حزم : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	الغزوي، سمير خالد احمد
مؤلفين آخرين:	الموسى، يونس خيرو الشنونا(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 313
رقم MD:	722286
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن حزم، ت 384هـ، المناظرات العلمية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/722286

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الغزوي، سمير خالد احمد، و الموسى، يونس خيرو الشنوان. (2014). مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية
(رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/722286>

إسلوب MLA

الغزوي، سمير خالد احمد، و يونس خيرو الشنوان الموسى. "مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية" رسالة
دكتوراه. جامعة اليرموك، اربد، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/722286>

الباب الأول

مناظرات ابن حزم (قراءة أولى)

الفصل الأول: فن المناظرات

الفصل الثاني: فلسفة المناظرة عند ابن حزم

الفصل الثالث: منهجية ابن حزم في المناظرة

الفصل الرابع: مزاج ابن حزم في المناظرات

الفصل الأول

فن المناظرات

- ١- أهمية المناظرات والجدل
- ٢- تاريخ المناظرات
- ٣- أسباب المناظرات
- ٤- أنواع المناظرات
- ٥- طبيعة المناظرات وضوابطها وآدابها
- ٦- المناظرات في الأندلس

توطئة

لقد اشتهر ابن حزم بالمناظرات، حتى أصبح أسلوبه العام مطبوعاً بقواعد هذا الفن وضوابطه، وتعدى ذلك إلى الأمور التي لا شأن للجدل بها مثل الحب. في هذا الفصل أردنا أن نؤصل لهذا الفن، ونتعرف على تاريخ الجدل وأسبابه، وعلى الضوابط والأحكام التي تحكمه، وذلك بهدف (القياس) والموازنة، ومعرفة مدى التزام ابن حزم بهذه الضوابط والآداب. إننا هنا نضع القواعد المعيارية العامة للمناظرات، ليكون من السهل إجراء عمليات المقارنة والمفارقة والموازنة بين النظري والتطبيقي.

ونعتقد أن فن المناظرات لم يلق عناية كافية من الدارسين، والمؤرخين للأدب، رغم أن هذا اللون النثري غني بالحركة، ومليء بالأساليب البلاغية، وفوق كل ذلك فهو مثير للعقل ومحرك له. حتى إن (شوقي ضيف) يراه "من أهم أجناس الخطاب النثري التي شغلت الناس على اختلاف طبقاتهم ومع ذلك لم يعنَ به كثيراً"^١.

ولنبداً بتعريف المناظرة؛ فالمناظرة في اللغة: "نَظَرَ إِلَى الشَّيْءِ. نَظَرًا وَنَظْرًا: أَبْصَرَهُ وَتَأَمَّلَهُ بَعِينَهُ وَ [نَظَرَ] فِيهِ: تَدَبَّرَ وَفَكَّرَ ... (ناظر) فلاناً: صار له نظيراً و - باحثه وباراه في المُحاجة - و [ناظر] الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ: جعله نظيراً له. ويقال: داري تناظر داره: تقابلها ... (تناظر) القوم: نظر بعضهم إلى بعض و - [تناظروا] في الأمر: تجادلوا (المُناظر): المجادل المحتاج. والمثل ... (التَّظْيِيرُ): المناظر والمثل المساوي"^٢. أما المناظرة في الاصطلاح فهي: "مسائل يبحث فيها عن أحوال وظائف المتناظرين من حيث كونها مقبولة أو مردودة"^٣.

وللمناظرة مرادفات لغوية كثيرة أهمها الجدل. و يضع (مصطفى القط) يده على مفهوم الجدل عند (الجاحظ) ويقول: "فإن لفظة (الجدل) مرادفة لطائفة من الكلمات بينها المنازعة والمناقلة والمناظرة، والمجادبة، والممانعة، والمرء، والمقابلة، وهي جميعاً تفيد معنى الجدل والمناقشة على اختلاف لونيته ودرجته"^٤. وعند (قدامة بن جعفر) - والذي خصص جزءاً من (نقد النثر) للحديث عن (الجدل والمجادلة) - فإنه يعرفهما: "وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف في اعتقاد المجادلين،

^١ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٥. نقلاً عن العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٤٥٧.

^٢ - مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط - مادة نظر - ص ٩٣١-٩٣٢.

^٣ - البغدادي: الواضح في علم المناظرة ص ٢.

^٤ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٤. نقلاً عن مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ لميشال عاصي ص ١٨٢.

ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق، والخصومات، والتتصل في الاعتذارات، ويدخل في الشعر والنثر"^١. وعن المناظرة يقول (محمد محيي الدين عبد الحميد): "المناظرة في اللغة تطلق على عدة معانٍ، منها المقابلة ومنها المكافأة، وتطلق في الاصطلاح على: "تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق"^٢.

١ - أهمية المناظرات والجدل

لا شك أن علم المناظرة قد أثر في الحركة النثرية و الحركة الأدبية عموماً، بل أدى إلى تسرب المصطلحات العلمية والفلسفية إلى اللغة العربية وإلى الأدب العربي، كما دخلت بفضل أساليب جديدة في طرح الأفكار وتحليلها^٣. وربما شجعت هذه الفوائد وغيرها الخلفاء، للاهتمام بالمناظرات، فكانوا يعقدون مجالس للمناظرة، تتناول موضوعات متعددة؛ في الفقه والنحو والصرف واللغة وغيرها^٤. ويصف لنا (المسعودي) في (مروجه) بعض هذه المجالس: "وجالس [أي المأمون] المتكلمين، وقرب إليه كثيراً من الجدليين المبرزين والمناظرين كأبي الهذيل وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، وغيرهما ممن وافقهم وخالفهم، وألزم مجلسه الفقهاء، وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق، فرغب في صفة النظر وتعلموا البحث والجدل"^٥.

ويكتب (الباجي) - معاصر ابن حزم ومناظره الأبرز - كتاباً خاصاً بالمناظرة، يسميه (كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج) وهذا - بالطبع - يعكس المستوى الذي وصل إليه الجدل في ذلك العصر، لا سيما أنه يتناول في هذا الكتاب الضخم، أدق تفاصيل المناظرة، وآدابها وضوابطها. وعن أهميتها يقول الباجي في هذا الكتاب: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأنًا، لأنه لا سبيل لمعرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت حجة، ولا علم

^١ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١١٧.

^٢ - عبد الحميد: رسالة الآداب ص ٧.

^٣ - انظر: قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٨.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ١٠٦.

^٥ - انظر: المصدر نفسه ص ١٠٦. نقلاً عن مروج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودي ص ٣/٢٤٨.

الصحيح من السقيم"^١. ولهذا العلم فوائد جمة، أهمها؛ معرفة طرق البحث والمناقشة مع الخصوم، وعصمة الذهن عن الخطأ، ورد شبهات المبطلين^٢. فالإنسان كونه مفكراً، لا أن يحمل أفكاراً يدور حولها الخلاف بينه وبين أفراد مجتمعه، وهذا يحتم المناقشة والمناظرة، وهذه العملية لا بد لها من ضوابط تحكمها، حتى لا تحيد عن الهدف، وحتى تؤدي المقصود^٣. وهذا يحتاج إلى علم خاص بالمناظرة، يضبط المتناظرين ويمكن من "معرفة حال المستدل وحال المجيب، ومحل وجوب السكوت ومحل وجوب الكلام"^٤.

أمّا هدف المناظرة النهائي فهو: "كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من وجهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب"^٥.

وبما أن الناحية الدينية كانت هي المهيمنة، على جوانب الحياة، لا سيما أن الإسلام تشريع يستهدف الحياة، وبالتالي، فقد كان له الجانب الأكبر في وجدان الناس، وكانت قضاياها هي محاور رئيسية، للنقاشات والمناظرات، ويمكن القول إن الجدل الديني كان له الحصة الكبرى، لأن قضاياها تخص الناس جميعاً، وليست خاصة بفئة ما، كما هو الحال - مثلاً - في المناظرات الأدبية أو الفلسفية أو ما شابه.

إنّ دراستنا عن المناظرات، ستكشف جوانب مهمة، قامت بها هذه المناظرات، أولها بيان براعة علماء الإسلام في الحجاج والجدال، حتى إنّ الدارس ليدهش من سعة إطلاعهم وخصب عقولهم^٦. وثانيها توضيح الدور الذي لعبه هذا الجدل في الدعوة إلى الإسلام، خاصة مع أهل الكتاب، الذين أمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن. ولا يخفى الدور الذي لعبته الفرق الإسلامية، كالمعتزلة مثلاً في الدعوة إلى التوحيد، من خلال توظيف العقل والبرهان.

ومن الإنصاف أن نقول: إنّ روح التسامح الديني كانت سائدة في غالب عصور الإسلام، حيث أتيح لغير المسلمين عرض آرائهم، وكانت التعددية العقدية مسموحة،

^١ - الباجي: كتاب المنهاج ص ٨.

^٢ - انظر: عبد الحميد: رسالة الآداب ص ٧-٨.

^٣ - انظر: البغدادي: الواضح في علم المناظرة ص ٢.

^٤ - عبد الرزاق: كتاب في فن آداب البحث والمناظرة ص ٤.

^٥ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٥. نقلاً عن الحجاج والاستدلال الحجاجي لحبيب أعراب ص ١٠٩-١١٠.

^٦ - انظر: السيوطي: الجدل الديني ص ٦٢-٧٢.

وكان المجال أمام غير المسلمين متاحاً لعرض عقائدهم والدفاع عنها، بل ومناقشة أمور العقيدة الإسلامية بكل حرية. ولتأكيد هذا فإننا ننقل كلاماً لأحد الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق يصف تلك الحرية؛

"قال عبد الله بن الوليد: سمعت أبا محمد عبد الله بن أبي زيد يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدى المالكي، عند وصوله إلى القيروان، من ديار المشرق، وكان أبو عمر دخل بغداد في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن عبد الله بن صالح الأبهري، فقال له يوماً: هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ فقال: بلى، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالستهم ولم أعد إليها، فقال له أبو محمد: ولم؟ قال: أمّا أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق كلها، المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والذهرية، والزنادقة، واليهود، والنصارى، وسائر أجناس الكفر، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه، ويجادل عنه، فإذا جاء رئيس من أيّ فرقة كانت قامت الجماعة إليه قياماً على أقدامهم، حتى يجلس فيجلسون بجلوسه، فإذا غص المجلس بأهله، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه، قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم، ولا بقول نبيهم، فإننا لا نصدق ذلك ولا نقر به، وإنما نتناظر بحجج العقل، وما يحتمله النظر والقياس فيقولون: نعم لك ذلك. قال أبو عمر: فلما سمعت ذلك لم أعد إلى ذلك المجلس، ثم قيل لي: ثمّ مجلس آخر للكلام، فذهبت إليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم سواء، فقطعت مجالس أهل الكلام فلم أعد إليها. فقال أبو محمد بن أبي زيد: ورضي المسلمون بهذا من القول والفعل. قال أبو عمر: هذا الذي شاهدت منهم، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك"^١.

٢- تاريخ المناظرات

سيجيبنا هذا الفصل عن سؤال هام هو، هل المناظرات فن إسلامي، له جذوره في تاريخ الأمة؟ أم إنه علم طارئ، اقتبس من حضارات الأمم التي احتكت بها الدولة الإسلامية؟

على المستوى السطحي للمناظرة، يمكن القول إن الجدل موجود بالفطرة مع الإنسان، فكل إنسان لديه تفكيره ومشاعره ونظراته الخاصة، تجاه الكون والحياة،

^١ - الضبي: بغية الملتبس ص ١٩٩-٢٠٠/١.

وسوف يحاول أن يحافظ على هذه النظرة، بل و سيدعو الآخرين إليها، ولدعوتهم، لا بد من تغيير قناعاتهم وآرائهم السابقة، والسبيل إلى ذلك هو الجدل والمناظرة. فالمناظرة - تأسيساً على هذا - نزعة إنسانية، لا ترتبط بزمان أو مكان محددين، لكنها تتأثر بالظروف من حولها، نمواً أو اضمحلالاً.

فإذا عدنا إلى العرب في جاهليتهم، وجدنا العقل العربي قد أبدع، لكن و لطبيعة الزمان والمكان، كان هناك ضعف في تقدمه، خاصة أن الاحتكاك الحضاري مع الأمم الأخرى، كان في أقل صورته. ولا يمكننا إنكار أثر الديانات المتنوعة، الموجودة في جزيرة العرب، فقد كان هناك الديانة اليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، وهذا قد ولدَ جدلاً في حدود معينة^١.

وما أن بزغ فجر الإسلام، حتى أثار حوله تياراً عريضاً من الجدل، ففي البداية كان على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصحابة الكرام أن يدخلوا في جدل عنيف مع المشركين، ثم كان عليهم أن يواجهوا أهل الكتاب؛ يهوداً ونصارى^٢. وقد كان الجدل مع أهل الكتاب يمتاز بعقلانية أكبر، فهؤلاء لديهم قدر من الحجج والبراهين، أكثر من المشركين، الذين اعتمدوا القوة والبطش، في غالب الأحيان.

فإذا عدنا إلى مصادر الإسلام الرئيسية؛ لنرى مكانة الجدل والمناظرة، فإننا سنجد أنه قد ورد أصل كلمة (ج. د. ل) في القرآن الكريم على شكل (١٩) صياغة، ومع التكرار في بعض المواضع تكون قد وردت (٢٩) مرة^٣. وقد حثَّ الله المسلمين في هذه الآيات المتعددة إخباراً وأمرأً على مجادلة أهل الكتاب والكفار على حد سواء. أمّا في الحديث الشريف فقد وردت كلمة الجدل (١٩) مرة على الأقل. إلا أنها جاءت بمعاني تفيد الإنكار والمنع، حتى إنها لتقترن أحياناً بالبدعة وأخرى بالضلالة بعد الهدى ومرة بالرفث ومرة بالكفر^٤. ويفسر (عبد المجيد تركي) هذا الاختلاف الموقفي؛ بأن "القرآن يحث فعلاً المسلمين على مجادلة من هم على غير دينهم، وهي مجادلة لا يمكن أن تتمخض إلا عن كل ما ينفع المسلمين وأهله. بينما تحرص السنة النبوية على صرفهم عن التجادل فيما بينهم، إذ لا يحتمل أن ينجر عنه إلا ما يفرق صفوفهم"^٥. و يفسر قلة

^١ - انظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ١٢-٣٧.

^٢ - أنظر: المصدر نفسه ص ٤٠-٤٢.

^٣ - انظر: عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢١٠.

^٤ - انظر: الباجي: كتاب المنهاج ص ٢٣-٢٤.

^٥ - انظر: المصدر نفسه ص ٤م.

الخلاف، أو الجدل بين المسلمين، في صدر الإسلام، أنهم كانوا غير معنيين كثيراً بالاستتباط وإصدار الأحكام الشرعية، مع وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي كان يحسم جميع الخلافات ويوحد وجهات النظر.

أما وقد توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن باباً قد فتح من الخلافات، ابتداءً بمن سيخلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهل يجب أن يكون من القرشيين أم من غيرهم. وقد ظهرت قضايا جديدة، في أصول الدين، أهمها: مسألة القدر، وحكم مرتكب الكبيرة، إضافة إلى الخلافات في فروع الدين، بسبب فقدان المرجعية، والاعتماد على النصوص، والتي سئفهم بوجهات مختلفة^١.

ومع نهاية العصر الراشدي "انتشرت المناظرات في الأدب العربي منذ اندلاع الخلاف بين علي - رضي الله عنه - ومعاوية - رضي الله عنه - وبين أهل العراق وأهل الشام، ثم بين هؤلاء جميعاً وبين الخوارج الذين خرجوا على الفريقين متبعين سبيلاً خاصاً بهم"^٢. ويرى (أبو زهرة) أن الخلاف بين المسلمين أشد خطره بعد مقتل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فالفرق التي بدأت سياسته، انتهى بها الأمر إلى فرق دينية فكرية، كالخوارج والشيعة والمرجئة. وقد أوجع الجدل عوامل عدة، أهمها: الاحتكاك الحضاري مع الفرس والرومان والسياريان واليونان، وهذا الاحتكاك قد جاء بالفلسفة، والتي زادت من انتشار المناظرات، كما كان للخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث في العصر الأموي، إسهام كبير في انتشار المناظرات والجدل^٣.

ثم نصل إلى العصر العباسي، حيث أزهت العصور، علوماً وأدباً وفلسفة، أضف إلى ذلك التنوع الهائل، من الملل والنحل في الدولة الإسلامية، مع الأخذ بعين الاعتبار الحرية الممنوحة للنقاش، في المسائل الفكرية والدينية، بل وبتشجيع الخلفاء أحياناً وتقريب العلماء منهم.

كما كان لنشوء (الزنادقة) الأثر الأبرز في تضخم الجدل. إضافة إلى المسألة التي شغلت عصور خلفاء ثلاثة؛ وهي مسألة خلق القرآن الكريم^٤. هذا كله قاد إلى الاعتناء بالمناظرة، ومحاولة تنظيمها وضبطها بقواعد وأصول، حتى تكون ذات فائدة، ولتبقى

^١ - انظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ٨٣-١١٠.

^٢ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٥.

^٣ - انظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ١١١-١١٩.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ٢٢٨-٢٨٨.

في دائرة المنطق والفكر. ولعل أول من كتب في علم المناظرة؛ اليزدوي والعميدي، ثم كثر التأليف من بعدهما^١.

٣- أسباب المناظرات

نعتقد أن ما سبق، من تعريف للمناظرة وتتبع تاريخي موجز لها، قد أعطى لمحة عن أسباب قيامها. وهنا سنحاول، بشيء من التفصيل، معرفة المحفزات والمثيرات التي أدت إلى قيام الجدل والمناظرة.

فمن المعلوم أن الاختلاف هو السبب الرئيسي في الجدل، إذ بدون الاختلاف، لا حاجة للإقناع، أو التأثير في الآخرين. والذي يخلق الاختلاف غموض الموضوع ذاته، مما يشكل عائقاً أمام الفهم الكامل له، وبالتالي، ستتباين الآراء. وربما يكون الموضوع ضخماً، بحيث تغيب عن المختلفين الحقيقة كاملة، فيظن كل منهما أنه على صواب. وقد تتداخل الرغبة والشهوة والمزاج في النظرة إلى الأمور، مما يولد الاختلاف في الحكم على الأشياء. وأحياناً يكون لطبيعة التفكير دور أساسي في إدراك المواضيع، فمن الناس من يحكم العقل، ومنهم من يحكم المشاعر، وهكذا. ولا يخفى مدى تأثير طبيعة المختلفين، فمن من الناس من آتاه الله عقلاً راجحاً وبصيرة نافذة وفكراً ثاقباً، فهذا، بالطبع، ستختلف زاوية نظره عن من هو أقل منه ذكاءً وإدراكاً^٢.

وبعيداً عن طبيعة المختلفين، فإن النص نفسه له دور كبير في إثارة النقاش والجدال، فعلى المستوى الديني- مثلاً - هناك نصوص تسمى، نصوص قطعية الثبوت، ظنية الدلالة، ستولد اختلافاً يسوق إلى الجدل والمناظرة. "إن النصوص التشريعية التي نستدل بهديها في حياتنا اليومية متناهية محدودة، بينما القضايا والنوازل البشرية العارضة غير متناهية ولا محدودة، فينتج عن هذا الركون إلى الاجتهاد في صوره المختلفة من رأي مرسل أو قياس محكم أو استحسان أو استصحاب أو استصلاح، وعندها لا مفر لنا من الاختلاف"^٣.

ما استعرضناه - حتى الآن - من أسباب، كان الاختلاف فيه مبرراً، فالاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية مطلوب، وعليه فإن التباين في الفهم والحكم سيكون مقبولاً،

^١ - انظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ٦.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ١٠-٥.

^٣ - الباجي: كتاب المنهاج ص ٤م.

مادام في حدود المعقول. لكن هناك أسباب للمناظرة، ناجمة عن دوافع مضمومة؛ فحب السلطان والرياسة، سيجعل بعض العلماء يبيعون علمهم بثمن بخس، كما أن التعصب، المسيطر على الإنسان، سيجعل من الإنسان مختلفاً مع الآخرين، دون أن يدرك حقيقة الوهم الذي يدافع عنه^١.

ومع أهمية الأسباب التي أوردناها، يبقى (علم الكلام) العامل الأكبر في زيوع المناظرات، حيث شكّل أَرْضِيَّة الجدل "في الثقافة الإسلامية عقيدة وتشريعاً ومنطقاً، وفي مفترقه ازدهرت مناهج الجدل وآداب المناظرات"^٢. إضافة إلى ما سبق، فإن اختلاف الديانات عامل هام في نشوء المناظرات، ففي الأحيان التي لا يتخذ السيف حكماً بين أهل الأديان، ستكون المناظرة هي ساحة المعركة، فإذا استحضرنّا صورة العالم الإسلامي قديماً، سنجد أن طوائف وعقائد وأدياناً و فرقاً مختلفة، اجتمعت في دولة واحدة. وإذا أضفنا حركة الترجمة الواسعة لكتب الفلسفة في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي، وتصدي العلماء لبحث مسائل يصعب على العقل إدراكها، كالمسائل الخاصة بالله - عزّ وجل - كالصفات والأسماء والقدرة، فإن هذا - بلا شك - سيفسر هذه الحركة الهائلة من الجدل والمناظرة، بين مختلف الأديان والملل والنحل والمذاهب^٣.

٤- أنواع المناظرات

لقد رأينا أنّ فنّ المناظرات فن إسلامي عربي، ضارب بجذوره في تاريخ الأمة. كما استطعنا تقدير الدور الذي لعبه هذا اللون النثري، في الحركة العلمية عموماً، في عصر الإسلام المختلفة. وسنعرض في عجالة لأنواع هذه المناظرات، فمن الطبيعي أنها لم تكن لوناً واحداً، بل تنوعت وتعددت، تبعاً للموضوع المُناقش، فكانت هناك المناظرات الدينية على رأس الأنواع، وكانت هناك المناظرات الفلسفية، والمناظرات العلمية، لكنّ نوعاً من هذه المناظرات تتمتع بجانب كبير من الإبداع، إنها المناظرات الأدبية، وقد كان هدف هذه المناظرات الأدبية "الكشف عن وجهتي نظر في شيء واحد من جانب أدبي،

^١ - أنظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ١٠-١١.

^٢ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٥. نقلاً عن التفكير اللساني في الحضارة العربية لعبد السلام المسدي ص ٣٦.

^٣ - أنظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ٧٦-٨١.

على نحو ما نجد في المناظرة التي جرت بين سهل بن هارون، وأحد البلغاء، في
المُفاضلة بين الزجاج والذهب"^١.

وقد يصعب تقسيم المناظرة إلى أنواع بطريق جازمة، لأن الانتماء النوعي قد
تفرضه أحياناً طبيعة موضوع المناظرة، وأحياناً أخرى كيفية إجراء المناظرة، أو
الغرض المقصود من المناظرة.

إجمالاً، يمكننا قسمة الجدل إلى قسمين: "محمود والآخر مذموم. فأما المحمود
فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل به الصدق، أما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة
وطلب الرياء والسمعة"^٢. فالهدف المرجو من النقاش، إما أن يكون إظهار الصواب
فيسمى (مناظرة)، وإما أن يكون الهدف المنشود هو إلزام الخصم والتغلب عليه، فالنقاش
هنا (جدل)، وأما إن كان الهدف هو الشهرة وتصدر المجالس، دون أن يقصد إظهار
الحق فهو (المكابرة)^٣. ويشير أبو زهرة إلى ملاحظة دقيقة، وهي إمكانية تعدد أنواع
المناظرة في المجلس الواحد؛ "فقد يبتدئ المناقشان متناظرين طالبين للحق، فينقذ في
ذهن أحدهما رأي ويثبت عليه، يأخذ في جذب الخصم إليه، وإلزامه به وحينئذ تنقلب
المناظرة جدلاً، وقد تدفعه اللجاجة إلى التعصب لرأيه ... فينتقل الجدل إلى مكابرة"^٤.

فإذا نظرنا إلى المناظرة باعتبار الطريقة التي تجري بها؛ فهناك مناظرات تكون
في مجالس عامة؛ كالمساجد وبلاطات الخلفاء والأمراء، أو الأسواق، وهناك مناظرات
أقل عموماً، تقتصر، ربما، على طرفي المناظرة فقط. ويشير (إسماعيل رضوان) إلى
نوع من المناظرات أسماه (المناظرة الشخصية)، يقول عنها: "فهي التي تعتمد على
المقابلة أو المراسلة فإنها تعتمد على الفطنة، وحسن التصرف وسرعة البديهة، لا سيما
في مواقف التحدي والمباراة الفكرية"^٥.

ولا يمكننا إغفال نوع هام من المناظرات، وهي المناظرات غير المباشرة، وعادة
تكون بتأليف يرد على تأليف سابق، وقد تقصُر المدة بين الطرفين، حتى يمكننا وصفها
(مراسلة) وقد تطول إلى قرون عدة، حيث يردّ متأخراً على متقدم.

^١ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٨.

^٢ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١١٧.

^٣ - انظر: أبو زهرة: تاريخ الجدل ص ٥.

^٤ - المصدر نفسه ص ٥.

^٥ - رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٤٢.

وإذا ألقينا نظرة من كُتُب إلى المناظرات الخاصة بالجانب الديني، فإن البعض يحلو له أن يقسمها إلى أنواع، بحسب الموضوع الذي تعالجه؛ فهناك (الجدل) وهو يُطلق على النقاش والخلاف في أصول الفقه الإسلامي، وهناك (الخلافات) وتشمل النقاش في فرع الفقه الإسلامي، ويخصص مصطلح (آداب البحث) لشروط المناظرة وقواعدها^١. وفيما سيلحق - إن شاء الله - سنجد أن نوعاً من المناظرات، استحوذ على جزء كبير من مؤلفات ابن حزم، واستحوذ على مناظراته تحديداً، إنه (المناظرة الافتراضية) وهي أن "يتتبع الباحث موضوعاً معيناً أو جانباً من موضوع معين فيقلبه على عدة اتجاهات، ثم يفترض الباحث ما يمكن أن يسأل من جهة السائل. وما يمكن أن يجاب من جهة المجيب، ثم يبدأ في مناقشة الأمور بهذا التصور"^٢.

٥- طبيعة المناظرات وضوابطها وآدابها

سنعرض في هذه المساحة من هذا الفصل، جانباً مهماً في موضوع المناظرة، وهو التفاهمات الاصطلاحية الخاصة بهذا العلم، وسنتطرق إلى الضوابط أو القوانين التي تحكم المناظرة إجرائياً، وإلى الآداب التي يجب أن يتحلى بها أطراف المناظرة، وأخيراً إلى مآل المناظرة ونتيجتها.

إن هذا التمهيد، المشتمل على قواعد المناظرة، سيكون هو المرجع في الحكم على مناظرات ابن حزم، من ناحية التزامه بهذه الإجراءات والضوابط والآداب. وسيكون الخروج عن هذه القواعد، خرقاً ناتجاً عن قصور ما لدى صاحبنا، لكننا سنحاول تفسير هذا الخروج، إن كان له ما يبرره.

ولنبداً من مصطلحات المناظرة ومفاهيمها، وهي مصطلحات تصالح عليها منظر وعلم الجدل، لتكون الفيصل والمرجع، ومن هذه الاصطلاحات (الحد) وهو: "اللفظ الجامع المانع. ومعناه: الذي يجمع المحدود على جنسه، ويمنع ما ليس منه أن يدخل فيه وما هو منه أن يخرج منه"^٣. أمّا (الدليل) فتعريفه: "ما صح أن يرشد إلى المطلوب وهو الحجة والبرهان والسلطان"^٤.

^١ - انظر: الباجي: كتاب المنهاج ص ٦م.

^٢ - رضوان: الإمام ابن حزم وأثر النزعة الظاهرية ص ٤٢.

^٣ - الباجي: كتاب المنهاج ص ١٠-١١.

^٤ - المصدر نفسه ص ١١.

و(المُستدل): "هو الطالب للدليل. وقد يكون المحتج بالدليل"^١. أمّا (المُستدلّ عليه) فهو: "الحكم وقد يكون المحتجّ عليه"^٢. أمّا (الفاقد) فهو: "ما لا يعتد به"^٣، أمّا (الشرط) فهو: "ما يعدم الحكم بعدمه ويوجد بوجوده"^٤، و(الإجماع) هو: "اتفاق أهل العصر على حكم الحادثة"^٥.

وقد يتضح الدليل وتقوم الحجة لأحد المناظرين، فلا ينصاع له، وهذا يسمى (مكابرة) والتي هي اصطلاحاً: "المنازعة بشيء لا يوافق الصواب لمنع ما هو مسلمّ عنده، أو دعوى بطلان شيء من البديهيّات أو دعوى بطلان دليل الخصم من غير إقامة دليل بطلانه"^٦. وأحياناً، يحدث أن يوافق المناظر خصمه على جزئية، موافقة مؤقتة، لغرض في نفسه، ويسمى هذا (مجاراة) وهي تحديداً: "إرخاء العنان للخصم والمساهلة معه، مثل أن يدعي السائل شيئاً ويزعم استلزامه شيئاً آخر، فيسلم له الخصم ما ادعاه ويمنع الاستلزام"^٧ وهذه المجاراة أنواع، منها؛ (التسليم) و (التنزيل) مثل أن يقول للخصم: لا نسلم المقدمة الصغرى، ولو سلمناها لا نسلم المقدمة الكبرى^٨.

وتجدر الإشارة هنا، ونحن نمضي مع مصطلحات المناظرة، أنّ لابن حزم نفسه قائمة كاملة بهذه المصطلحات، أوردها في مؤلفاته^٩، وهي تؤكد أن ابن حزم كان مناظراً متميزاً، على المستوى العملي والمستوى النظري الأولي.

وتقودنا حرب ابن حزم الشديدة على (القياس) إلى إيراد تعريف هذا المصطلح، والذي هو: "حمل أحد المعلومين على الآخر في إثبات الحكم أو إسقاطه بأمر جامع بينهما"^{١٠}. ويقارب القياس مصطلح آخر هو (الطرد) وتعريفه: "وجود الحكم لوجود العلة، وبالعكس"^{١١} أمّا (النقض) فهو: "وجود العلة مع عدم الحكم"^{١٢}. ويداني هذا المصطلح: (الكسر) وهو: "وجود معنى العلة مع عدم الحكم"^{١٣}. ومن المصطلحات التي

^١ - الباجي: كتاب المنهاج ص ١١.

^٢ - المصدر نفسه ص ١١-١٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ١٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ١٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٣.

^٦ - عبد الرزاق: كتاب في فن آداب البحث والمناظرة ص ٨-٩.

^٧ - المصدر نفسه ص ٨-٩.

^٨ - المصدر نفسه ص ٩.

^٩ - راجع مثلاً: رسائل ابن حزم ص ٤٠٩-٤١٦/٤.

^{١٠} - الباجي: كتاب المنهاج ص ١٣.

^{١١} - المصدر نفسه ص ١٤.

^{١٢} - المصدر نفسه ص ١٤.

^{١٣} - المصدر نفسه ص ١٤.

تدل على براعة المناظر (القلب) وهو: "مشاركة الخصم المستدل في دليله"^١ وأما (المعارضة) فهي: "مقابلة السائل المستدل بمثل دليله أو ما هو أقوى منه"^٢ وأخيراً (الانقطاع) وهو: "العجز عن نصره الدليل"^٣.

وبطبيعة الحال، فإن للمناظرة طرفين رئيسيين؛ "يسمى من يتولى الدفاع عن القضية والمُدعى بالمعلل، ومن يعترض عليها ويهاجمها بالسائل"^٤. فالذي يبدأ بالمناظرة يسمى (معللاً)، لأنه نصّب نفسه لإثبات حكم ما، وهو في العادة يستدل على صدقه. أما الطرف الآخر فسمي (سائلاً)، لأنه في العادة ينفي حكم الأول ويسأل ويطلب الدليل^٥. أما وظائف (السائل) - وهو الذي ينفي الحكم ولا يقبله - فهي ثلاثة:

١ - "المنع: وهو طلب الدليل ويشترط في المنع كي يكون وظيفة مقبولة شرطان: أن لا يمنع بديهياً جلياً، أو مسلماً به عنده"^٦.

٢ - "النقض: وهو إبطال الدليل بإثبات تخلفه في صورة من الصور ... وهو نوعان؛ مشهور، وهو أن ينقض دليل الخصم من دون ترك شيء منه، ومكسور وهو: أن ينقض دليل الحكم مع ترك شيء منه"^٧.

٣ - "المعارضة: وهي مقابلة دليل الخصم بدليل يبطل مدعاه ... وينبغي الحذر من الغصب وهو: الاستدلال على بطلان الدعوى أو المقدمة قبل أن يستدل الخصم عليها"^٨.

أما الطرف الآخر (المعلل) - وهو الذي يدعي الحكم - فوظائفه مبنية على ردة فعل الطرف المقابل، أي على الوظيفة التي فعلها الخصم؛ فعند (المنع) من الطرف الآخر، تكون وظيفة (المعلل): "إثبات الممنوع بالدليل أو التنبيه، أو إبطال سنده"^٩، فإذا (نقض) الطرف الأول فإن (المعلل) عليه: "نفي الشاهد، بعدم تسليم جريان الدليل على الشاهد، أو

^١ - الباجي: كتاب المنهاج ص ١٤.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٤.

^٣ - المصدر نفسه ص ١٤.

^٤ - البغدادي: الواضح في علم المناظرة ص ٣٦.

^٥ - انظر: عبد الرزاق: كتاب في فن آداب البحث والمناظرة ص ٥.

^٦ - البغدادي: الواضح في علم المناظرة ص ٣٦.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣٧.

^٨ - المصدر نفسه ص ٣٧.

^٩ - المصدر نفسه ص ٧١.

عدم تخلف المدلول، أو الانتقال لدليل آخر"^١، أمّا عند (المعارضة) فإن على (المعلل) "المنع، والنقض والمعارضة، لأنه يصير المعلل سائلاً والسائل معللاً"^٢.

فإذا علّمت وظائف أطراف المناظرة، والمصطلحات الخاصة بها، فلنستعرض ما يُتناظر فيه. فالمناظرة إما أن تكون في تعريف شيء، أو في تقسيمه، أو في أمر عام، يسمى التصديق، فالتعريف هو (الحد) أمّا (التقسيم) فهو: "تحصيل حقيقة الشيء بذكر أجزائه التي يتركب منها"^٣. أمّا التصديق فهو: "المركب التام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته وقد سمي قضية ودعوى ومدعى"^٤.

وخطوات المناظرة يجب أن تكون كالتالي: أولاً: النظر في مفردات التعريف أو التقسيم أو التصديق، فإن كانت غير واضحة، سئل عنها ويسمى هذا (استفساراً)، وعلى الطرف الآخر أن يوضحها، ويسمى هذا (بياناً).

ثانياً: النظر إلى (نقل) التعريف أو التقسيم أو التصديق، هل صاحبه ناقل له؟ فإن كان ناقلاً له، هل هو ملتزم صحته؟ فإن كان ناقلاً له فقط، طُلب تصحيح النقل، وإن كان ناقلاً غير ملتزم الصحة، فليس للخصم مناقشته فيه. فإن كان ناقلاً ملتزم الصحة، أو أن الدعوى من عنده، فهناك ثلاثة أحوال: إن كانت الدعوى تعريفاً، فعليه أن ينظر، هل التعريف مستوفٍ لشروط الصحة والحسن فإن كان غير ذلك، فعليه الاعتراض بأن التعريف ليس حقيقياً، أو أنه ليس حداً تاماً، وذلك مع إقامة الدليل.

أمّا في التقسيم، فإن كان مستوفياً الشروط وجب قبوله، وإن ظهر فيه خلل، أو أنه لا يضم جميع العناصر التي تحته، فيُعارض عليه، وعلى الآخر أن يُسلم، أو أن يحرر مراده من هذا التقسيم، أو أن يعدل إلى تقسيم آخر. أمّا في التصديق، فيُنظر هل الدعوى بديهية؟ فإن كانت كذلك، فعليه الإذعان، وإن كانت بديهية خفية، فعلى المدعي أن يقيم عليها (تنبيهاً)، وإن كانت دعوى نظرية فيجب عليه أن يقيم عليها (دليلاً). فإن فعل ذلك، فعلى الخصم أن (يمنع)، ومعناه أن يطلب دليلاً على مقدمة معينة، أو أن (يعارض)، وهو أن يدعي نقيض كلام خصمه، أو يدعي مساوياً لهذا النقيض، أخص من هذا

^١ - البغدادي: الواضح في علم المناظرة ص ٧١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٧١.

^٣ - عبد الحميد: رسالة الآداب ص ١٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٥١.

النقيض، مع إقامة الدليل. أو أن (ينقض) مدعى خصمه، بأن يثبت بأن دليل خصمه يجري مع مدع آخر، مع تخلف حكم الدليل، عن هذا المدعى الآخر.^١

ومن الطبيعي جداً أن يسعى طرفا المناظرة إلى كسب الجولة، وأحياناً كثيرة، يعتمد المناظران أو أحدهما طرقاً غير مقبولة، أخلاقياً أو أدبياً، وهنا سنورد بعض الآداب، التي يتحتم على أطراف المناظرة الالتزام بها، حتى تكون الغلبة حقيقية، وليست مترتبة على لجاجة، وعلو صوت أو ما شابه.

ومرة أخرى، نقول أن ما يهمنا بالدرجة الأولى، من هذا العرض لقواعد المناظرة، هو قياس التزام ابن حزم -لاحقاً- بضوابط المناظرة وآدابها.

ولعل ما يؤكد أهمية آداب المناظرة، ودورها، في حفظ المناظرة عن الخروج عن هدفها، هو وضع الخليفة (المأمون) (ت ٢١٨هـ) لمجموعة من هذه الضوابط، فقد قال مرة لبعض المتناظرين في مجلسه: "الشتم عي، والبذاءة لؤم، وقد أبحنا الكلام، وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل وقفناه، ومن ذهب عن الأمر حكمنا فيه بما يجمل، فاجعلا بينكما أصلاً، فإن الكلام الذي أنتما فيه من الفروع، فإذا افترعتما رجعتما إلى الأصول".^٢

ومن الضوابط التي يضعها (قدامة بن جعفر): "وحق الجدل أن يُبنى مقدماته مما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن في نهاية الظهور للعقل، وليس هذا سبيل البحث، لأن حق الباحث أن يبني مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه، وأبينها للعقل".^٣

وفي الغاية من المناظرة، ينبه (الباجي) المتناظر إلى "أن يقدم على مناظرته تقوى الله عز وجل ليزكو نظره ... ولا يقصد المباهاة والمفاخرة".^٤ وفي المناظرة، على المناظر أن يكون ناقدًا جيدًا و "لا يقبل من ذي قول كل ما يأتي به لموضع ذلك الصواب الواحد، ولا يرد على ذي قول مخطئ كل ما يأتي به لموضع ذلك الخطأ الواحد".^٥

ومن الآداب أن يُقبل على خصمه، ويمهله حتى يفرغ من كلامه، ولا يظهر العجب والتشنيع على خصمه. وأن لا يتكلم إلا فيما كان عالماً به، ولا يستدل إلا بدليل قد

^١ - انظر: عبد الحميد: رسالة الآداب ص ١٩-٢١، ٣٩-٤٠، ٧٥-٧٦.

^٢ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٦. نقلاً عن معجم الأدباء لياقوت الحموي ص ١٥/١٤١.

^٣ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١١٩-١٢٠.

^٤ - الباجي: كتاب المنهاج ص ٩.

^٥ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١٢٨.

وقف عليه وخبره.^١ وعلى المناظر أن يكون هادئاً حليماً، صبوراً على أذى خصمه، حتى وإن شاغبه هذا الخصم، لأن الوقار حينئذ أغبط له.^٢ وعليه أن لا يستصغر خصمه، أو يتهاون به، فقد يُغلب بسبب هذا التهاون، بل عليه أن يصغي إلى كلام خصمه، ويحفظ مقدماته ونتائجه.^٣

كما أن على المناظر "أن يحترز من الإيجاز ومن الإطناب، وعن استعمال الألفاظ الغريبة، وعن اللفظ المجمل ... وعن التعرض لما لا دخل له في المقصود، وعن الضحك ورفع الصوت وأمثالها. وعن المناظرة مع أهل المهابة والاحترام"^٤، وذلك حتى لا يكلّ ذهنه بقدر خصمه، فتذهب فكرته وحجته. وعلى المناظر أن يتواضع فلا "يكلم خصمه وهو مقبل على غيره، أو مستشهداً بمن حضر على قوله، فإن ذلك سوء عشرة"^٥.

أمّا نوعية المصطلحات الواجب تداولها بين المتناظرين، فيجب أن تكون مما يفهمه الطرفان. وهنا لا بد من الإشارة إلى تأثير المناظرات بالطرق والمصطلحات الكلامية "إن المناظرات الفقهية قد استفادت من المناظرات الكلامية، وذلك على الأقل في مستوى صياغة العرض وإحكام البيان وإقامة الاحتجاج، وكذلك في تبني مواد المنطق اليوناني"^٦. وهذا أثرٌ بشكل كبير على المتناظرين، حتى "اضطروا أحياناً في مجالس النظر إلى بعض التنازلات، وإلى الرضا والتسليم ببعض الجزئيات بقصد التقرب نوعاً ما من وجهة نظر خصومهم"^٧. لهذا كله على المتناظر "أن يتجنب استعمال مثل هذه المصطلحات [مصطلحات المتكلمين] في خطابه لغير أهلها"^٨.

أمّا نهاية المناظرة أو مآلها، فمهما طال، فلا بد أن تنتهي بوحدة من نتيجتين:
"١ - خسارة المعلن، وذلك إذا لم يتمكن من إثبات مدعاه، بأن يستدل على مدعاه، ثم يبطل السائل جميع أدلته، ولا يبقى في جعبته شيء، فهذا يسمى الإفحام ...

^١ - انظر: الباجي: كتاب المنهاج ص ٩-١٠.

^٢ - انظر: جعفر: كتاب نقد النثر ص ١٣١.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ١٣١-١٣٢.

^٤ - أبي الخير: رسالة الأدب في علم آداب البحث والمناظرة ص ٤٩-٥٠.

^٥ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١٣٢.

^٦ - الباجي: كتاب المنهاج ص ٤-٥م.

^٧ - المصدر نفسه ص ٥م.

^٨ - قط: مفهوم النثر الفني ص ١٠٧.

٢- خسارة السائل، وذلك إذا عجز السائل عن التعرّض لدليل المعلل، بأن يبقى السائل يمنع في مقدمات المعلل، وهو يستدل، إلى أن يوصله المعلل إلى مقدمات بديهية جلية، أو مسلمة عنده، فهذا يسمى بالإلزام^١. وعلى الطرفين أن يستشعرا أن "الأئمة من الانقياد للحق عجز، فلا يتمتع من قبول الحق إذا وضح له، ولا يكونن قصده في الجدل ألا يقطع"^٢.

٦- المناظرات في الأندلس

بعد أن تابعنا مسيرة الجدل، وأسبابه وأنواعه وأشكاله، في المشرق الإسلامي، آن لنا أن نقرب أكثر، حيث أرض أدينا؛ الأندلس، ومسقط رأسه؛ قرطبة، لنتابع هناك - أيضاً- مسيرة الجدل والمناظرة.

سنسلط الضوء، أولاً على البيئة الأندلسية والقرطبية، خاصة البيئة الفكرية، ثم نتناول ما نراه أسباباً للمناظرات، وسنرصد مدى شيوع المناظرات، وأهم الموضوعات التي كانت تتناولها. كل ذلك ليتسنى لنا رصد علاقة ابن حزم من عصره، ومدى استفادته من معطياته، بل وكيف استغل ابن حزم هذه المعطيات في سبيل مشروعه، ومدى الانسجام بين روحه، وروح عصره.

ففي شبه الجزيرة الأيبيرية، في القرن الخامس الهجري كانت الأندلس بلد علم وأدب، ورث فيها العامريون ودول الطوائف وبني جهور تراثاً إسلامياً ضخماً من الأمويين، ومن المشاركة الوافدين. والأهم من ذلك أن التواصل والالتحام الفكري، بين أجزاء هذه الحضارة، لا يشبه الموقف السياسي المتفكك المتنافر^٣.

أما الناحية الفكرية والعلمية، فثمة علوم واصلت مسيرتها في الازدهار، وهي العلوم الدينية من فقه وحديث، وعلوم بدأت تزدهر منذ القرن الرابع الهجري كعلم النحو والشعر، الذي بلغ الذروة في هذا العصر، بفضل الأمراء الذين أغدقوا الأموال على الأدباء. وفي علم الطب أخذ بعضهم يرحل إلى المشرق، ويمضي سنوات طوال يتعلمه. وفي علم الفلك، كانت هناك قفزة هائلة، أصبحت على أثرها الأندلس مركزاً نشطاً في

^١ - البغدادى: الواضح في علم المناظرة ص ١٨.

^٢ - جعفر: كتاب نقد النثر ص ١٣٢.

^٣ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ٣٤.

هذا المجال. غير أنّ علم الفلسفة، ورغم ظهور بعض اللامعين فيه، قبل القرن الرابع، إلا أن ازدهاره الحقيقي كان قريباً من القرن الخامس الهجري^١.

أمّا قرطبة فكانت نابضة بالعلم والأدب، فأهلها مزيج من الأجناس والسلالات والحضارات وهذا - بطبيعة الحال - سيكون له أثره في ترقّي العلوم والآداب والفنون والصناعات. كما كانت قرطبة مركزاً للفقهاء والشعراء والأدباء والمتكلمين وعلماء الحديث، وكانت أكثر بلاد الأندلس كتباً ومكتبات. وهذا التعدد سيجعل منها - من جهة أخرى - مسرحاً للمنكرات، واللهو والخمر والنساء. لكن ذلك لم يمنع أن تكون درّة الأندلس علمياً وثقافياً وأدبياً^٢.

وربما ساعد على هذا الازدهار الثقافي في قرطبة الإحساسُ الحاد بالهوية، حيث كانت دائماً معرضة لمحاولات المحو، في مواجهة الحضارة النصرانية الأوروبية، كما كان التفوق المشرقي محفزاً دائماً للمنافسة^٣.

ولكن ما حال قرطبة مع الفتنة؟ لا يمكن إنكار الأثر السلبي الذي تركته الفتنة على قرطبة، ولكن يجب الاعتراف أن تلك الاضطرابات، كانت حافزاً لأهل قرطبة للتجدد والإبداع، بل كان التنافس بين دول الطوائف، في مضمار العلوم والآداب، مشجعاً رئيساً لذلك الازدهار^٤. ويُرجع المستشرق الإسباني (بالنثيا) الازدهار الفكري إلى عوامل أهمها: أن عصري الإمارة والخلافة، كانا فترة إعداد طويلة، تجمعت خلالهما فروع الدراسات واختمرت طويلاً، وأصبحت دانية في عصر الطوائف. كما كان للحرية التي منحها ملوك الطوائف أثر في تلك النهضة الثقافية^٥.

في بيئة الأندلس تلك، لن يُستغرب نشوء المناظرات والجدل، ولكن ما أهمية دراسة تلك المناظرات؟ ربما يُجاب على هذا بأن المناظرات شأنها "شأن الرسائل العلمية في عصرنا، بل لقد كان أثرها أبعد أثراً لأنها شملت ذوي المكانة والتمرس في العلم ولم يسلم منها كبار الشيوخ"^٦. ويؤكد (خالد السيوطي) أهمية دراسة المناظرات الدينية، بين علماء المسلمين وأهل الكتاب، حيث أبرز فوائدها في:

^١ - انظر: اليوسف: ابن حزم الأندلسي حياته - فلسفته ص ٢٣-٢٧.

^٢ - انظر: إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٢٧.

^٣ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ٣٦-٣٧.

^٤ - انظر: إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٢٣.

^٥ - انظر: بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٣.

^٦ - عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٣٩. نقلاً عن مقال العلاقات بين العلم لوديدة طه النجم ص ٢٥٢-٢٥٧.

- ١ - معرفة الأثر الحضاري الذي تركه المسلمون بالأندلس في تأسيس علم مقارنة الأديان، وعن تفاعل حضارة المسلمين مع أصحاب الرسالات السماوية.
- ٢ - التعرف على طبيعة المشكلات الدائرة آنذاك.
- ٣ - معرفة مدى التزام المسلمين بأداب الجدل الرفيعة، والتي استمدوها من القرآن الكريم وسيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -^١.

ومما يزيد من أهمية دراسة المناظرات في الأندلس؛ أن "الجدل الإسلامي لليهود في الأندلس كان أكثر وضوحاً عنه في المشرق نظراً لأن الوجود الثقافي لليهود كان أكثر ثراءً... [و] كان للجدل الدائر بالأندلس انعكاسه على المشرق وأفاد المشرقيون من مؤلفات ابن حزم والخزرجي في ردودهم على اليهود والنصارى"^٢.

فإذا تصورنا المكان والزمان، حيث الأندلس في عصر ابن حزم، وأدركنا حجم التقدم الحضاري، فإننا لن نستغرب ظهور فنّ المناظرات، وشيوعه في تلك المنطقة. ويؤكد (بالنثيا) أنّ مؤلفات ابن حزم، وما تحويه من مادة غزيرة - والمناظرات جزء هام منها - لا يمكن أن تصدر "إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغاً عظيماً"^٣.

وقد خصصت (هلا العلي) بحثاً أسمته (المناظرات في الأدب الأندلسي) ترى فيه أنّ المناظرات: "فن أدبي ثري برع فيه عدد من كتّاب الأندلس على درجة من التفاوت والتأنق. وابتكروا موضوعات جديدة مستحدثة على أيديهم لم تكن معروفة لدى كتّاب المشرق"^٤. فإذا عدنا إلى بداية الفتح الإسلامي للأندلس، فلن نجد لهذا الفن وجوداً حقيقياً، لأن الدولة كانت "مهمة بتوطيد أركان الحكم واستتباب الأمن الداخلي... يضاف إلى ذلك عامل اللغة، حيث لم تكن اللغة العربية قد انتشرت بالقدر الكافي بين سكان البلاد الأصليين"^٥.

إذاً كانت بيئة الأندلس، وقرطبة تحديداً، محفزاً رئيسياً لنشوء المناظرات واتساعها. وهنا نُجمل عوامل هذا النشوء؛ فمن أهم العوامل، العامل الثقافي المزدهر، الذي أشرنا إليه، فالتيارات الفكرية والدينية والأديان المتعددة، كلها أسهمت في خلق جوّ

^١ - انظر: السيوطي: الجدل الديني ص ٧-٨.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٢٨٤-٢٨٥.

^٣ - بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٤.

^٤ - العلي: المناظرات في الأدب الأندلسي ص ٦٣.

^٥ - السيوطي: الجدل الديني ص ٧٣.

من التنافس المحموم^١. كما كان التناقض هو سمة العصر، فثمة علماء وفقهاء بلغوا الذروة في العلم، وثمة علماء اتبعوا الشهوات وأرخوا العنان للحكام، وأظهروا طاعتهم وانصياعهم لهم، طمعاً بالمال والجاه.

ويحسن بنا هنا أن نتوقف قليلاً عند الجدل الديني، فهو الجدل الأكثر ذيوماً، وأكثر ملامسة لوجدان الناس؛ حكماً ومحكومين، فالجانب الديني - عموماً - كان له دور محوري، في علاقة الحاكم بالمحكومين، فالناس - غالباً - لا تنساق في الحكم، إلا بناء على عقيدة دينية، مما يشجع الحكام على التدثر بالغطاء الديني، وإن كانوا غير صادقين. لكن في الأندلس، الأمر مختلف لأن "ذلك الالتزام الديني لم يترك لضمير الحكام أو تقديرهم، وإنما أخذ شكلاً واقعياً في صورة علماء وفقهاء يقفون إلى جانب الحاكم ويشاركونه في الحكم"^٢.

وبناء على هذا، ستكون الصبغة الدينية هي الطاغية على كيان الدولة، وهذا سيشجع الجميع على انتهاج المسلك الديني، لأنه الطريق الأقرب إلى الحكم والسياسة، وبالتالي، لن نستغرب تعدد الفرق الإسلامية، وغلبة التعصب المذهبي في الأندلس. ومن أبرز الفرق التي كانت حاضرة في الأندلس آنذاك (المعتزلة) وإن كانت أخف حدة عنها من المشرق، فقد كانت أضعف تأثيراً. وكان هناك فرقة (المسرية) التي نالت اهتماماً من المفكرين الأندلسيين. وكانت (الشيعة) التي بدأت ضعيفة، واحتضنها البربر، وكان مجيء الحموديين إلى السلطة، مشجعاً على التشيع في الأندلس. وكذلك كان (الخوارج) و (المرجئة)^٣.

ولا يمكن إغفال أثر (الشعوبية) في حركة الجدل الأندلسي، ونذكر هنا - على سبيل المثال - (رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية^٤ أبا جعفر بن الخراز يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب). وقد استعمل (غرسية) في هذه الرسالة "كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق، وتلاعب بالألفاظ، وتعريض وتضمين واقتباس..."^٥.

^١ - انظر: الوظيفي: المناظرة في أصول التشريع الإسلامي ص ١٤-١٥.

^٢ - مؤنس: شيوخ العصر ص ٧.

^٣ - انظر: منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد ص ٣٩-٥٢.

^٤ - هو الكاتب أبو عامر أحمد بن غرسية، من بيت مشهور بدانية، توفي سنة (٦٣١ هـ) وصفه ابن سعيد بأنه من عجائب دهره وغرائب عصره، وإن كان نصايه في العجمة، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعتة العربية، وهو من أبناء نصارى البشكنس. انظر: ابن سعيد: المغرب ص ٤٠٦-٤٠٧/٢.

^٥ - هارون: نوادر المخطوطات ص ١/٢٤٣.

المهم أنّ هذه الرسالة أثارت ردود أفعال كثيرة استمرت زمناً طويلاً، وقد وصلنا أربعة ردود عليها؛ الأول: ردّ أبي يحيى بن مسعدة، والثاني: من مجهول، عنون ردّه (برسالة ثانية في الرد على ابن غرسية)، والثالث: ردّ أبي جعفر أحمد بن الدودين البننسي، والأخير ردّ أبي الطيب بن منّ الله القروي. كما أنّ هنالك ردوداً لم تصلنا، وهي: ردّ الفقيه أبي مروان بن عبد الملك الأوسي، وردّ الكاتب ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي، وردّ أبي محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي الغرناطي، وردّ عبد الحق بن خلف بن مفرج، وردّ أبي الحجاج البلوي.^١

كل هذا سيقود إلى التعصب الفكري والمذهبي، والذي سيؤدي إلى الاحتكاك وإلى الجدل والمناظرة في النهاية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إنما شاعت المناظرات، وأصبحت تقليداً له حضوره في الأندلس، ولعل عوامل الاتساع هي عوامل النشوء نفسها، لكن بحدّة أكثر. فموجات الاهتداء إلى الإسلام، شكلت تهديداً لليهود والنصارى في الأندلس مما جعلهم يهتّبون للدفاع عن عقيدتهم، وسط مناخ متسامح من المسلمين، تجرّأ فيه كثر إلى الطعن في الإسلام وسبه.^٢ وهذا - بالمقابل - سيؤدّ حركة ردود أفعال مقابلة، فظهرت ردود من المسلمين على هؤلاء النصارى، لعل من أبرزها: (الرد على النصارى) (لأبي القاسم القيسي) و (في الرد على النصارى) (لابن أبي عبيده) وكتاب (مقامع هامات الصليبان ومراتع روضات الإيمان) (لابن أبي عبيده الخزرجي). وكتاب (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام) (لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي) ولا ننسى ردود صاحبنا (ابن حزم) وغريمه (أبو الوليد الباجي) الذي ردّ على رسالة راهب فرنسا، والتي بعث بها هذا الراهب مع مبعوثين إلى أمير (سرقسطة) (المقتدر بالله)، يدعو فيه إلى الدخول في الدين النصراني.

إذاً، فقد وصلت المناظرات مرحلة متقدمة من الانتشار، حتى أصبح بعضها، لا غاية له إلا التسلية؛ "كان هناك مناظرات ومجادلات يغلب عليها الكآبة والظرف والأجوبة البديهة المسكتة والشعر الخفيف"^٣. بل إن هذه المناظرات، أصبحت وسيلة تقييم للآخرين، وتقرير مستقبلهم الوظيفي أو العلمي "ولم يكن مجال هذه المناظرات التنافس

^١ - انظر: هارون: نوادر المخطوطات ص ٢٣٦-٢٤٠/١.

^٢ - انظر: السيوطي: الجدل الديني ص ٧٨-٨١.

^٣ - عويس: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي ص ٤٧.

والكسب فقط، كما لم تكن لمجرد التسلية، إنما كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية"^١.

وربما نتفهم موقف (الباجي) الذي يشكو من خروج كثير من علماء عصره عن قواعد المناظرة، ونذكر من هذه الشكوى، مدى الانتشار الكبير لهذا اللون الفني، يقول الباجي: "فإني لمّا رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين، وعن سنن المجادلة عادلين ... أزمعت أن أجمل كتاباً في الجدل"^٢.

ويرصد (عبد الحميد تركي) بعضاً من أمثال كتب الباجي، من كتب تُعنى بالتنظير للمناظرات والخلاف والجدل، منها "مسائل الخلاف للصيمري الحنفي (١٠٤٥/٤٣٦) ... [و] المنهاج في ترتيب الحجج للباجي (١٠٨١/٤٧٤) ... [و] إحكام الفصول في أحكام الأصول له أيضاً ... [و] الأصول إلى علم الأصول لأبي إسحاق الشيرازي (١٠٨٣/٤٧٦) ... [و] المعونة في الجدل ثم التبصرة في أصول الفقه له أيضاً ... [و] المستصفى وشفاء الغليل في بيان مسالك التعليل [لشيرازي أيضاً] ... [و] الجدل على طريقة الفقهاء لابن عقيل (١١١٩/٥١٣) ... [و] الواضح في أصول الفقه له أيضاً ..."^٣. وفي ظل هذا الشيوع والانتشار للمناظرات، من الطبيعي، أن تتعدد موضوعات هذه المناظرات وأغراضها، فبعضها وُظف للمدح، وبعضها للتعبير عن الشغف بالطبيعة، كما كان لو صف جوانب الحضارة نصيب من موضوعاتها.^٤

ومن أجل أن تكتمل صورة الواقع الجدلي الأندلسي، رأينا أن نسلط الضوء على نوع مميز، من أنواع الجدل والمناظرات، وهو (المساجلات الشعرية) فقد كانت ذائعة بين شعراء الأندلس، رغم أن هذا اللون لم يلقَ دراسة كافية من الباحثين.^٥

والمساجلة الشعرية لها نظائر لغوية، أو تسميات مقاربة أشهرها: الإجازة و التلميط والمعارضة^٦. ويعرّف (جمعة شيخه) المساجلات الشعرية بأنها: "أن يقول الشاعر نصف بيت (صدراً أو عجزاً) أو بيتاً كاملاً، أو أكثر من بيت ... ثم يطلب من

^١ - عويس: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي ص ٣٩.

^٢ - الباجي: كتاب المنهاج ص ٧.

^٣ - المصدر نفسه ص ٩م.

^٤ - انظر: العلي: المناظرات في الأدب الأندلسي ص ٦٣.

^٥ - انظر: الربابعة: المساجلات الشعرية في الشعر الأندلسي ص ٥.

^٦ - انظر: المصدر نفسه ص ٨-١٠.

جلسائه وندمائيه أو خلانه وأصدقائه إتمام ما قاله .. ويكون على نفس البحر وبنفس القافية"^١.

ومن الطبيعي، أن يكون هدف المساجلة إظهار القدرة على الارتجال الشعري، وتحدي المُخاطب^٢. وقد تعددت أغراض المساجلة الشعرية، فجاءت أحياناً للوصف؛ كوصف الطبيعة بأشجارها وأنهارها ونباتاتها، كما كانت تأتي أحياناً في الغزل، وأحياناً أخرى في الإخوانيات، والتي كانت على شكل خطاب شعري، يرسله أحدهم إلى صديقه، فيرد هذا الصديق بشعر على القافية والبحر نفسهما. وربما كانت المساجلات لأغراض الفكاهة والتسلية وحسب^٣.

نظرياً، تقوم المساجلة على أركان هي:

- أ- "الطرف الأول: المساجل المخاطب ويسمى قوله (قسيمًا).
- ب- الطرف الثاني: المساجل المجيب، ويسمى قوله (إجازة).
- ج- الطرف الثالث: إذا فشل الثاني بإجازة ما طُلب منه.
- د - فعل الأمر: من الطرف الأول (أجز)"^٤.

وهذه المساجلات تنقسم إلى؛ مساجلة مباشرة، وهي عادة تتم بين شخصين وربما أكثر، وتكون في زمان ومكان واحد. وقد تتنوع تسميات هذه المساجلة، قياساً على الزمن المستغرق في عملية الرد، فإذا كان الرد سريعاً مباشراً أُسميت: (المساجلة بالارتجال) وإن كان الرد أبطأ قليلاً سميت: (المساجلة بالبدئية) أما إن طالت المدة فتسمى (المساجلة بالتروي). أما القسم الآخر، فهو المساجلة غير المباشرة، وتكون في زمانين أو مكانين متباعدين^٥.

من زاوية أخرى، يمكن النظر إلى هذه المساجلات حسب شكلها الذي ظهرت عليه، فهناك (المساجلة المماتنة) وهي التي يكون فيها القسم صدراً والإجازة عجزاً، وقد تأتي هذه المساجلة هي الأخرى، على أشكال:

- ١ - القسم صدراً، والإجازة عجزاً، مع إضافة بيت واحد أو أكثر.

^١ - شيخه: المساجلات الشعرية بالأندلس ص ١٦.

^٢ - انظر: الربابعة: المساجلات الشعرية في الشعر الأندلسي ص ٨.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ٤١-٥٦.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ٨.

^٥ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٠-٣٥.

٢- القسم بيتاً، والإجازة بيتاً آخرًا.

٣- القسم أكثر من بيت، والإجازة بيتاً واحداً.

٤- القسم أكثر من بيت والإجازة أكثر من بيت كذلك.

٥- لا حصر للعدد، إذ يتناوب المتساجلان على القول والرد.

أما الشكل الثاني من هذه المساجلات فهو (المساجلة الضمنية) وفيها يختفي أحد أركانها؛ القسم أو الإجازة^١.

نستطيع هنا أن نتوقف، وننطلق إلى ابن حزم، بعد هذه الجولة في أرض الأندلس، وأرض الإسلام عموماً، فابن حزم كان نتاجاً طبيعياً للعوامل المتعددة في البيئة الأندلسية، حين تلاقت مع شخصية فريدة في تكوينها. أما المناظرات، فكانت جزءاً من الحياة العلمية والثقافية في الأندلس، استفاد ابن حزم منها وطورها، ووظفها في خدمة مشروعه الظاهري.

^١ - انظر: الربابعة: المساجلات الشعرية في الشعر الأندلسي ص ٢١-٢٨.

الفصل الثاني

فلسفة المناظرة عند ابن حزم

- ١- تعريف المناظرة عند ابن حزم
- ٢- أسباب المناظرة عند ابن حزم
- ٣- غايات المناظرة عند ابن حزم ونتائجها
- ٤- الظاهرية وأثرها في مناظرات ابن حزم

توطئة

قال ابن حزم: "فمن استطاع إنكاراً فليبرز صفحته وليناظر مناظرة العلماء، فمن عجز عن ذلك فليسال سؤال المتعلمين، أو ليسكت سكوت أهل الجهل"^١. بهذه الكلمات، يعلن ابن حزم حرباً على خصومه، ميدانها العلم، وجنودها هو وحده، مقابل كثر، اجتمعوا على مناظرته.

لقد شغلت المناظرة جزءاً رئيسياً من حياة ابن حزم، واستحوذت على طابعه العام، لقد كانت المناظرة وسيلة رئيسية لابن حزم لنشر دعوته، وكانت - لظروف كثيرة سنذكرها لاحقاً - قدراً لا مفر منه، وواقعاً يجب أن يواجهه.

لقد قرر ابن حزم أن يعيش مختلفاً، فاختار الموقع المختلف، ففي السياسة - مثلاً - وضع نفسه في الكفة الخاسرة، وفي الفكر، قرر أن "يستكشف أرضاً محرمة"^٢. في هذا الفصل، ستكون مهمتنا أن نتابع المناظرة عند ابن حزم، بعد أن تابعتها - فيما سبق - نظرية مجردة، إننا نريد أن نفهم لماذا اختار ابن حزم هذه الطريقة؟ وسنحاول تحديد كيف فهم ابن حزم المناظرة؟ وكيف استفاد منها؟ ثم سنحاول معرفة الأثر الظاهري على هذه المناظرات، وكيف سار ابن حزم في وجهات منسجمة مع هذا المنهج - الظاهري - والذي سنتوقف عنده أيضاً.

إنّ الذين عرفوا ابن حزم صاحب (طوق الحمامة)، بالتأكيد لم يعرفوا كل الحقيقة، فابن حزم مع أنه ذلك الرجل المحب الرقيق، الذي تنساح الكلمات في قلب قارئه، هو نفسه ابن حزم الذي أتعب علماء عصره، وأوهن قواهم، حتى صمتوا جميعاً عن بكرة أبيهم، لا ينبسون بنبت شفة أمامه. وقد ذاعت شهرة ابن حزم الجدلية، حتى إنّ (التلمساني) حين ترجم له قال: "وأبي محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالاته"^٣. بل إن معاصريه يعرفون أنه جدلٌ، قبل أن يصطدم معهم، حتى أنه ناقش أحدهم مرة في الحب، فقال له: أنت رجلٌ جدلٌ، ولا جدلٌ في الحب يُلتفت إليه^٤. وعند كثير من مؤرخي الفكر الإسلامي، ستجد ابن حزم قد أدرج اسمه في عداد (أهل الجدل). أما كتب ابن حزم، فأكثرها مناقشات جدلية، ومناظرات فقهية، ومساجلات كلامية^٥.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩٢ .

^٢ - عوض: متمردون لوجه الله ص ٦١ .

^٣ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٣/٧١ . نقلاً عن نفع الطبيب للتلمساني.

^٤ - انظر: أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٦٢ .

^٥ - انظر: إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري ص ١٣٠ .

على المستوى الفكري، كان موقف ابن حزم من الجدل موقفاً متقدماً جداً، مقارنة بموقف أبناء عصره، فكثيراً ما كان يدافع ابن حزم عن الجدل (المحمود)، وهذا يعود "بالإضافة إلى وجوبه، إلى أنه كان من المجادلين الممتازين وأن المالكيين الذين عاصروه كانوا إذا أفلج عليهم في الجدل اعتصموا بإدعاء أنه رجل جدلي"^١.

أما مواضيع المناظرة، فهي ستعدد وتتنوع، وهي نتيجة حتمية لتعدد معارف ابن حزم وعلومه، فقد أثirt قضايا عدة، بين ابن حزم وخصومه، ابتداءً بالعقيدة ومروراً بالفقه وأصوله وغيرها، وانتهاءً بمنهج النظر ذاته. وهذا التعدد سيجعل ابن حزم - في جدله - يتبع مناهج متعددة، حسب طبيعة الطرف الآخر المقابل، ففي جدله مع غير المسلمين، كاليهود والنصارى، كان يعتمد العقل والمقدمات البديهية، فضلاً عن استخدام نصوصهم من الكتب المقدسة لإقامة الحجة عليهم منها. أما مع الفلاسفة فكان يعتمد على العقل والبديهيات فقط. أما في مناقشته للمسلمين من محدثين وفقهاء، فكان يعتمد على النص وقواعد الاستنباط، أما أصحاب الفرق الكلامية؛ كالمعتزلة والخوارج والشيعة والأشاعرة فكان العقل هو الطريقة الأكثر استعمالاً في جدالهم.^٢

١- تعريف المناظرة عند ابن حزم

سنحاول في هذا المكان من الفصل، الاقتصار على كلام ابن حزم نفسه، حتى يمكننا الخروج بتصور واضح، حول طبيعة فهم ابن حزم للمناظرة، وهذا يحتاج إلى متابعة تنظير ابن حزم لمصطلحات المناظرة، وتنظيره كذلك للآداب التي يجب أن تراعى فيها، إضافة إلى الضوابط التي يجب أن يلتزم بها من أطراف المناظرة. وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم خصص جزءاً غير صغير من كتابه (التقريب) للحديث عن أصول المناظرة، أسماه: (باب الكلام في رتب الجدال وكيفية المناظرة المؤديين إلى معرفة الحقيقة)^٣.

ولنبداً بتعريف ابن حزم - نفسه - للجدل والجدال، فهو يرى أنهما: "إخبار كل واحد من المختلفين بحجته، أو ما يقدر أنها حجته، وقد يكون كلاهما مبطلاً، وقد يكون

^١ - اليوسف: ابن حزم حياته - فلسفته ص ٩٦ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٩٧-٩٩ .

^٣ - راجع: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣٢٥-٤٦٤/٤ .

أحدهما محقاً والآخر مبطلاً، إما في لفظه وإما في مراده أو في كليهما، ولا سبيل أن يكون معاً محقين في ألفاظهما ومعانيهما"^١.

ومن المصطلحات التي يُكثر ابن حزم استعمالها في مناظرته، مصطلح: (الإقناع) والذي يُعرفه بأنه: "قضية أو قضايا آنست النفس بحكم شيء ما دون أن توقفها على تحقيق حجة، ولم يقم برهان بإبطاله"^٢. أما تعريفه (للشغب) فهو: "تمويه بحجة باطلة بقضية أو قضايا فاسدة تقود إلى الباطل وهي السفسطة"^٣، وتعريفه (للإلهام): "علم يقع في النفوس بلا دليل ولا استدلال ولا إقناع ولا تقليد"^٤.

وهذه التعريفات تقودنا إلى البحث عن (محور) المناظرة، وصاحب الكلمة الفصل فيها، إنه (البرهان)، والذي هو الغاية والوسيلة في المناظرة، فبه يوصل إلى الإقناع، وهو غاية التناظر إذ به يُهزم الخصم ويدحض. ولعل الخصم الألد للبرهان هو الإلف والعادة، لذا يرفض ابن حزم أن يحولا بين المرء وقبول الحق، كما يرى أن الإكثار من البراهين قوة، وأن البرهان الحقيقي لا يمكن أن يعارضه برهان آخر، ونَبّه إلى أن الأشد من رفض البرهان، هو قبول ما يحتاج إلى برهان، دون أن تقوم عليه الحجة^٥.

ويصنّف ابن حزم المتناظرين حسب معايير عدة، فيصنّفهم بناءً على غاياتهم؛ فإما أن يكون أحدهما على يقين من أمره ببرهان قاطع، والآخر متوهم، فعندها تكون المناظرة بغرض دفع الشكّ ودفع الشر، أما الحالة الثانية، فأن يكون أحدهما على يقين، والآخر يطلب الحق، فعند ذلك تكون المناظرة محمودة، وإما أن يكون أحد المتناظرين جاهلاً والآخر مخطئاً، أو أن يكون الاثنان مخطئين، فعند ذلك تكون المناظرة لا منفعة منها^٦.

كما يحذر ابن حزم المتناظرين غير المنصفين، وقد جعل دلائل لمعرفتهم ومنها: أن يستعمل هذا المناظر البهت والصراخ، ولا يبالي بتناقض أقواله، أو أن ينتقل من سؤال إلى آخر، أو يستعمل كلاماً مستغلقاً، أو يكرره، دون فائدة، أو أن يتضاحك، ويلعن

^١ - ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ص ١/٦٠ .

^٢ - المصدر نفسه ص ١/٥٤ .

^٣ - المصدر نفسه ص ١/٥٤ .

^٤ - المصدر نفسه ص ١/٥٤ .

^٥ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٣٩ .

^٦ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٣٦-٣٣٤ .

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٢٦-٣٢٥ .

خصمه. ولا ين حزم مع هؤلاء طريقة أخرى، غير المناظرة، أولها؛ الزجر، وأخرها؛ اجتنابه كما يجتنب المجنون^١. ويشترط ابن حزم للمناظرة الأمن "وإنما المناظرة مع الأمن"^٢. لكن إن كان في الأمر ما يستحق التضحية، فلا بأس بالمناظرة مع وجود الخوف؛ "فالعاقل لا يرى لنفسه ثمنًا إلا الجنة"^٣.

ويضع ابن حزم ضوابط وقوانين عدة، تحكم عملية المناظرة، وأولها أن يتفق المتناظران على أمر يفتتحان به الكلام، وأن يتراضيا على من يكون (معللاً) ومن يكون (سائلاً)^٤. ثم ينبغي أن لا يمتنع الخصم عن الإجابة، وإن فعل فإنه عجز، فإذا أجاب الخصم، ثم سكت المناظر فإن سكوته يعني (إلزاماً) له. كما أنه يؤكد أن انقطاع الخصم عن الإجابة أو المعارضة قد لا يعني أحياناً (فلجاً) إن كان سكوته لخوف أو شغل. كما على الخصم أن يلتزم بالإجابة، بنعم أو لا، حين يكون السؤال للتعيين^٥، أما إن كان السؤال (بالتقسيم) فيجب التزام هذه الأقسام، أو أن يبين عدم استوائها للأجزاء، إن كانت كذلك. كما لا ينبغي للمناظر أن يعارض سؤال خصمه بسؤال آخر، بل ببرهان. ولا يجاري خصمه بالإقرار بباطل، ولا يعارض الخطأ بالخطأ^٦.

ويضع ابن حزم (آداباً) للمناظرة، أهمها: أن لا يقاطع أحد المتناظرين الآخر، حتى يتم كلامه. كما يجب أن لا يطيل بكلام لا فائدة منه، أو يمكن اختصاره، وأن يقلل خصمه إن أخطأ، كما لا ينبغي للحاضرين التدخل أو الشهادة لأحد المتناظرين، إلا أن يرى حيفاً ظاهراً فيشهد بذلك، وألا يخرج عن المسألة التي كان بها الجدل^٧.

إنّ معايشة ابن حزم وممارسته الكثيفة للمناظرة، تجعل من نصائحه للمناظر نصائح غالية ثمينة، فهي صادرة عن خبير، وهنا، يقدم ابن حزم مجموعة من النصائح أبرزها؛ أن لا يتعرض المناظر للمناظرة إلا بعد أن يتسع علمه، وتقوى ثقته بنفسه:

^١ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣٤٠-٣٤٣/٤ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٢٨/٤ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٣٢٨/٤ .

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٢٧/٤ .

^٥ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٢٩/٤ .

^٦ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٣٤-٣٣٥/٤ .

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٢٦-٣٢٩/٤ .

"وايّاك والكلام في علم من العلوم حتى تتبحر فيه"^١. وهذا التبهر لا يتحصل إلا بكثرة المطالعة والبحث، والوقوف على أقوال الآخرين، بل ومطالعة الكتب المترجمة، وكتب النحو والتاريخ وغيرها^٢.

ويقدم ابن حزم نصائح، حددت كثيراً من ملامح مساره الجدلي، فيقول: "وتأمل مقدماته ومقدماتك، ونتائجه ونتائجك"^٣، ويقول أيضاً: "وإن وجدت تمويهاً فبينه ولا تغتر بذهاب خصمك عنه فلعل غيره من أهل مقالته يتفطن لما غاب عنه"^٤، وهذا تحديداً هو ما يجعلنا نرى كثرة تقصي الأدلة عند ابن حزم والرد على أدق الشبهات عند خصومه. ويشدّ ابن حزم من أزر المتناظر حين يقول له: "ولا تستوحش مع الحق إلى أحد فمن كان معه الحق فالخالق تعالى معه، ولا تُبال بكثرة الخصوم"^٥. كما على المناظر أن لا يتسرع؛ "وتحفظ من أن تجيب من لم يسألك فتحصل على الخزي"^٦.

كل هذه الضوابط، وضعها ابن حزم وأراد بها عموم المتناظرين، لكنه خصّ نفسه بضوابط أشد صرامة، تدلّ على تفوقه، وخبرته الجدلية المميزة. وأول ذلك أنه يُخيّر خصمه، بين أن يكون (سائلاً) أو (معللاً)، لأن كثيراً من الخصوم يضعفون إذا سُئلوا^٧. كما أن ابن حزم لا يكفيه انقطاع خصمه (إلزامه) كما هو المشروط، بل يتعدى ذلك إلى تبينه للحق، بعد أن أبطل قولة خصمه. كما أنه لا يبالي كثيراً باللحن من خصمه، لأن الاشتغال بذلك يخرج المناظرة عن مسارها،^٨ وهذا - بالطبع - فيه نظرة غير تقليدية للغة، وغائيتها.

والأهم من ذلك كله، أن ابن حزم يرى سبيلاً آخر للخصوم، الذين لا يلتزمون بالضوابط، فيقول عنهم: "فهذا واجب أن يكسر غربه ويردع عييه بمثل هذا ولا يناظر بأكثر من ذلك، إذ الغرض كفّ ضرره، ولا يكفّ ضرره بمناظرة صحيحة أصلاً"^٩.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٤١ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٤٣-٤/٣٤٤ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٤/٣٣٤ .

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٣٣٤ .

^٥ - المصدر نفسه ص ٤/٣٣٦ .

^٦ - المصدر نفسه ص ٤/٣٤٠ .

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٢٧ .

^٨ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٣٠ .

^٩ - المصدر نفسه ص ٤/٣٣٣ .

وهذا - تحديداً - لبّ القضية، ويُفسّر نزوع ابن حزم إلى القسوة وحدة اللسان في المناظرة، لأنه لا يرى الجدل مع هؤلاء مناظرة صحيحة أصلاً.

كما أن ابن حزم يُجوّز أن يتقصّى المناظر حجج الخصم كلها، بل ويولد الحجج إذا كان المقام مقام تأليف، أما إن كان المقام مناظرة مباشرة، فلا يجوز له أن يجيب عن خصمه بدليل سها عنه خصمه، لأن خصمه قد يحرجه، ويستغني عن هذا الدليل إخراجاً له^١.

٢- أسباب المناظرة عند ابن حزم

في هذا الموضع من الفصل، سنتعرض للأسباب التي أسهمت في خلق نزعة الجدل عند ابن حزم، ثم للعوامل التي طوّرتها وجعلتها خصيصة ومكوناً رئيساً في شخصيته، لذا سنقف عند الأسباب الخاصة ببيئة ابن حزم عموماً، ثم عند أسباب تخصّ ابن حزم في طفولته وشبابه، ثم سنرى أثر مرض ابن حزم على نفسيته، كما سنرصد تأثير عوامل السياسة، ودور العلماء من معاصري ابن حزم في تضخم نزعة الجدل هذه، كما سنرصد النظرة المبدئية للجدل عند ابن حزم.

سبق أن تحدثنا عن عصر ابن حزم، وهنا لا حاجة تدعو إلى الإعادة، بقدر ما تدعوا إلى ربط النتائج بأسبابها، فالاختلاط الحادث في عصر ابن حزم، كان له أشد الأثر على ابن حزم وعلى نمو نزعة الجدل عنده، ففي هذا العصر "اختلطت السياسة بالفكر، واختلطت الرذيلة بالفضيلة، والإيمان بالفساد"^٢. كما أن الاختلاط على مستوى الأجناس، أوجب اختلاطاً فكرياً، حثّم على ابن حزم أن يُبدي ردة فعل ما تجاهه، خاصة أن أثر ذلك الاختلاط كان الأشد في ابن حزم، بل "علّه كان أوضح فيه تأثيراً من غيره. فهو يختار مذهب الشافعي، ولم يكن منتشرًا في الأندلس، ثم يختار مذهب أهل الظاهر، وهو وافد إلى الأندلس"^٣.

ولا يمكن إغفال دور الحركة الكلامية، والتي كانت على أشدها في (المريّة) التي رحل إليها ابن حزم، بل وضعته في عمق تلك المجالس التي تعقد للمناظرة، وألهبت

^١ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٤٠ .

^٢ - عوض: متردون لوجه الله ص ٢٤ .

^٣ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٣ .

مشاعره وأثارت تطلعاته^١. كما أن صلة ابن حزم بعلماء اليهود في المرية، وخاصة (بابن النغريلة) قد حقّزت صاحبنا على اكتساب المعارف اليهودية، لتفنيده دعاوى علمائهم^٢. بل قد يُستغرب من حجم الاتصال بين المسلمين واليهود، حتى على مستوى العلماء، وهنا نسجّل كلاماً لا بن حزم يُظهر عمق هذه الصلة: "فقد يصادق الإنسان المسلم اليهودي والنصراني لمعرفة تقدمت، أو لطلب يعانيه، أو لبعض ما شاء الله عز وجل"^٣.

وهنا أيضاً، لا نريد أن نعيد ما ذكرناه سابقاً (في التمهيد) من أحداث حياة ابن حزم، لكننا سنؤكد أن أثراً عميقاً قد تركته تلك الطفولة المترفة، والشباب الناعم، وذلك الانقلاب المفاجئ، على صعيد عام، بأحداث الفتنة القرطبية، التي قلبت الأمور رأساً على عقب، أو على صعيد خاص، بوفاة أبيه وأخيه، وفجيئته بموت محبوبته (نعم)، "وإذا كان بعض الكتاب يعتبرون أن كثيراً من آراء الفلاسفة ومذاهبهم من متاعب الطفولة، أو غرام المراهقة، أو شطف العيش ولينه أو الكتب التي شاققتهم، فإن كاتب هذه السطور [المؤلف] يذهب إلى أبعد من ذلك بحيث يمكن القول بأن المفكر تعبير وتصوير لمجتمعه"^٤.

ولعل التأثير الأشد، الذي تركه نمط طفولة ابن حزم هو سوء الظن؛ فقد "كان رجلاً سيء الظن بالناس، وسوء الظن هذا صفة أصيلة عنده، بل... نشأت معه في حياته المقصورة الأولى، وقوتها الملابس التي لابسها حياته، على النحو الذي رأينا طرفاً منه، من مثل صلته (بخيران العامري)"^٥.

ومهما تحدثنا عن أسباب حدة ابن حزم وفجاجة قوله، فلعلنا لن نصيب الحقيقة إذا لم نستمع إلى ابن حزم - نفسه - يحدثنا عن ذلك السر: "ولقد أصابتنني علة شديدة ولدت عليّ ربواً في الطحال شديداً، فولد ذلك عليّ من الضجر، وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه؛ إذ أنكرت تبدل خلقي، وأشدت عجبي من مفارقتي لطبعي، وصحّ عندي أن الطحال موضع الفرح؛ إذا فسد تولد ضده"^٦.

^١ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٩٢.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٩٠-٩١.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٧٤.

^٤ - حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ٣١.

^٥ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٢٣.

^٦ - ابن حزم: مداواة النفوس ص ٨١.

من كلام ابن حزم هذا، يظهر لنا أننا أمام طبيعة ليست أصيلة، لكنها طارئة بسبب المرض؛ "إن للاضطراب النفسي أسباباً أخرى لا صلة لها بالتكيف النفسي ولا بنوع التفاعل الاجتماعي، بل هي ناشئة عن اضطرابات فيزيولوجية عضوية"^١. ويذكر إحسان عباس أمراضاً أخرى، أصيب بها ابن حزم فيقول: "وقد تعاورت عليه علل غيرت من قواه الجسمانية، أصيب مرة بعلّة أفقدته ما كان يحفظ وما عاوده حفظه إلا بعد أعوام، وكان يكثر أكل الكندر [اللبن] مقاومة لما أصابه من خفقان القلب، وهو يعزو إلى ذلك جمود دمه في أشد المواقف العاطفية، وأصيب مرة بالرمد، ومرة بمرض ولد عليه ربواً في الطحال... وهذا يفصح عن سبب المرارة وحدة الخطاب في مناظراته ومجادلاته لمخالفه"^٢.

وفوق كل هذا وذلك، فقد كان للفطرة دورها في بروز نزعة الجدل هذه؛ "وكان ابن حزم ميالاً بطبعه إلى المناظرة، شديد الوطأة على مخالفه في الرأي"^٣ وهنا يمكن أن نتساءل، هل الظروف الموضوعية التي عاشها ابن حزم، سواءً في طبيعة البيئة أو مرضه، تكفي لخلق هذه الشخصية؟ نعتقد أن أشخاصاً كثيراً عاشوا التجربة ذاتها، ولم نصل معهم إلى النتيجة ذاتها، فمن المؤكد إذاً أن أسباباً أخرى أسهمت في التكوين الجدلي لابن حزم.

ففي خروج ابن حزم عن مذهب الإمام مالك تحدّ واضح للعلماء حوله، بل تعد على مذهب الدولة، فقد خرق أحد بنود دستور الدولة حينئذ، دليل ذلك أن أمراء الأمويين نصّوا على التزامهم بمذهب مالك، ورفضوا الفتوى بغيره من المذاهب، فهذا هو الحكم المستنصر (ت ٣٦٦ هـ) يقول في إحدى رسائله: "فمن خالف مذهب مالك بن أنس - رحمه الله - بالفتوى أو غيره، وبلغني خبره؛ أنزلت به من النكال ما يستحقه وجعلته شراداً"^٤.

كما كان للعلماء معاصري ابن حزم دورٌ كبير في تحفيز ابن حزم على الجدل، وعلى مواجهتهم، فقد أبغضوه أشد البغض، وذلك لأنه خرج عن مذهب الإمام مالك، كما أنهم أحسّوا أمامه بالضعف، حيث لا تثبت لهم حجة عنده. وربما كان الغنى وبسطة

^١ - مهرداد: أهمية إسهام ابن حزم الأندلسي في تأسيس علم النفس ص ١٣٦ .

^٢ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣١٧ .

^٣ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٣/٣٥ . نقلاً عن كتاب الوفيات لابن قنفذ القسطنطيني.

^٤ - القنوري: الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب ص ٢٨٢-٢٨٣ . نقلاً عن الأحكام الكبرى للقاضي عيسى بن سهل.

الرزق الذي أنعم به على ابن حزم، سبباً في تساميه عنهم، في اقتتال بعضهم على قتات الرزق^١.

وأكثر ما يترك الندوب في القلوب الظلم، فقد لحق الظلم بابن حزم وحيف به! وفي هذا ينقل (بالنثيا) عن (آسين بلاثيوس) قوله: "إن ابن حزم عاين من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه، وشاهد من مساوءات الفوضى السياسية التي ضربت على الأندلس بجرانها في أيامه ما نفرّ نفسه، وأوذى في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد، ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له ويقاطعون مذهبه الديني ويحرمونه"^٢. بل إنه كثيراً ما أفترى عليه، وقول ما لم يقله، ومن ذلك دفاعه عن نفسه حين يقول مثلاً: "إن هذا الكلام كله كذب وإفك، وما قلناه قط ولا علمنا قط بقوله"^٣.

ولم يكن قرار اعتزال الناس من جهة ابن حزم فقط، بل كان القرار مشتركاً، اتخذته كثيرون من الناس، مما جعل ابن حزم في غربتين؛ غربة واغتراب، أما الغربة المادية، فيصفها ابن حزم: "وما ألفنا كتابنا هذا وكثيراً مما ألفنا إلا ونحن مغربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد. مخافون مع ذلك في أنفسنا ظملاً وعدواناً"^٤. أما اغترابه وهو فعلاً يعيش في وطنه، فهو الانفصال الفكري بينه وبين قومه؛ "فنحن غرباء بين المتعصبين على من سلم لهم دنياهم، ليسلم له دينه"^٥.

فأيّ عجب من رجل عايش كل هذا الضيم والهوان أن يحتدّ طبعه ويطول لسانه، ويقع فيمن حوله، حتى أنه وُصف بأنه: "كان كثر الوقوع في الأئمة المتقدمين والمتأخرين، لم يكذب يسلم منه أحد"^٦.

أما السبب الذي جعله مناظراً جديلاً، وأصابه بالويلات في الوقت ذاته فهو السياسة، فقد دخل ميادينها وهو شاب في مطلع شبابه، وعانى من أوصاب النفى والمؤامرات^٧. فلم يكن يهادن الحكام أو يورّي في نقدهم، بل كان يصكهم صكاً، كما يفعل مع غيرهم، ومرة يوجه نقداً لاذعاً لملوك الطوائف، بسبب تعاملهم مع الدولة الصليبية، فيقول:

^١ - انظر: أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٦.

^٢ - بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢١٦.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٦.

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٣٤٦.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٧.

^٦ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ص ١/١٦٩.

^٧ - انظر: بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٧٤-٧٥.

"والله لو علموا أنّ في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصرارى فيمكنونهم من حرم المسلمين، وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم"^١.

حتى بعد أن انصرف ابن حزم عن السياسة، بقيت عنده العقيدة السياسية، والتي استمدّها من عقيدته الدينية عموماً، فلم يسلم له شيء. وهكذا اجتمع عليه الجهل بسياسة العلم، والجهل بسياسة العصر، ومتى اجتمعاً معاً، فقد جمعاً حوله كل أسباب النفرة^٢. فقد تحول ابن حزم من سدة الوزارة إلى جواب آفاق، يُنازل العلماء والفقهاء ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة، في الفقه والفلسفة والدين^٣.

وهكذا توجّب على ابن حزم أن يواجه قيم المجتمع، المرتبطة أصلاً بالسياسة، رغم أنه تخلى عن الأخيرة، فمرة يهاجم الوضع الاقتصادي للمجتمع، والذي سببته السياسة أصلاً، فيرى أن المال الحلال شحيح نادر، لأن الدرهم ما أن يستقر بيد الناس حتى "يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حق عند التغلب عليهم، وقد صار ناراً"^٤.

ربما تتغير الأحوال على الإنسان، فتتغير تبعاً لذلك أفعاله أو قناعاته، أما حين يرتبط الإنسان بمبدأ ما فإنه من العسير أن تختلف أفعاله المبنية على قناعاته تلك. وهذا حالنا مع ابن حزم، فالمناظرة عنده ليست وليدة إرهابات وظروف ما وحسب، إنما هناك نظرة خاصة يتبناها ابن حزم تجاه الجدل والمجادلة، فيقول صراحة: "وأوجب [الله تعالى] علينا مناظرة المعاندين بالبراهين"^٥ بل إنه يعتبر المناظرة (عهد الله) فيقول: "فوقفت عند عهد الله - عز وجل - في ذلك على كراهتي المسائل"^٦.

فالمناظرة ليست ترفاً، أو أمراً يحسنُ القيام به، بل هي واجبة مفروضة. وقد أوجب ابن حزم الجدل على من كان عالماً بالحق وأوجه الاستدلال وطرق الإثبات ما دام يطلب الحق ولا يبغي سواه، لأن ذلك النوع من الجدل من قبيل إقامة حجة الله تعالى، ومن قبيل تبليغ رسالات الرسل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^٧.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٧٦.

^٢ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٨٨/١٨٧.

^٣ - انظر: بالنشأ: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٧٤-٧٥. نقلاً عن غرسية غومس.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٧٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٨.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٧.

^٧ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٦١.

فإذا تجاوزنا المنظور المبدئي، أو العقدي للمناظرة، إلى المنظور الغائي أو المصلحي، فإن المناظرة تعدّ طريقة مثلى لنشر الآراء والدفاع عنها، بل إنها تضطلع بمهمة تحطيم آراء الخصم في حال تفوق صاحبها؛ "وكانت لابن حزم مساجلات ومجادلات حامية اضطر إلى خوضها دفاعاً عن آرائه"^١. فهو يرى أنه موكل إليه مهمة محاربة آراء المخالفين وإذاعة مذهبه، وفي سبيل هذا، لا يقيم وزناً لما يثيره الناس حوله، بل إنه يرى في هذا التشنيع عليه فضيلة يشعر بالغبطة ناحيتها^٢. ولا يعني كلامنا أن لابن حزم آراء مغايرة للإسلام، بل إنه يراها هي الإسلام ذاته، فدفاعه عن آرائه جزء من دفاعه عن الإسلام. وقد كان له دور في محاربة أعداء الإسلام فكرياً، "وقد زاد عن الإسلام فيما هوجم به من اليهود والنصارى... حراً غير مقيد يدرس ويُدارس، ويناقش ويجادل، فتصدى ابن حزم لردّ افتراءاتهم، وكشف اللثام عما يدسون من آراء"^٣.

فمهمة ابن حزم هي الدفاع عن الإسلام واسكات "من تكلم بمن وقر في نفسه من غير حجة وانطلق لسانه بغير برهان"^٤. بل إن ابن حزم أشد ما يكون حدة وصرامة، إذا نيل من الصحابة الكرام، وهذا بعكس ما افترى عليه بأنه يحطّ من الصحابة - رضوان الله عليهم -؛ "وابن حزم شديد الانتصار للصحابة الذين شاهدوا نور النبوة، وربوا في كنف الرسول صلى الله عليه وسلم، فحق لهم الفضل وحقت لهم الصدارة، فهو يثور ويغضب ويسبل لسانه كالسيف على من ينالهم بسوء القول"^٥.

وفي إطار هذا الدفاع عن الإسلام ألف ابن حزم كتابه (الفصل) لأن طبيعة المرحلة التي عاشها ابن حزم، شهدت إنقلاباً في موازين القوى الإسلامية والنصرانية، ففي عهد العامريين، كانت الغزوات على الممالك الصليبية في الشمال على أشدها، أما في مرحلة الفتنة البربرية، فإن الحال انقلب كلياً، فضعف المسلمون وتشتت قواهم، وزادت قوة الصليبيين في الشمال وأصبحوا أكثر تحمساً لمشروع الاسترداد. هذا الوضع سيخلق اتصالاً بين المسلمين والنصارى، بأشكال عسكرية، أو فكرية زمن الهدنة. أما

^١ - بالنسبة: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٤ .

^٢ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٣٢-١٣٣ .

^٣ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٧ .

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٣ .

^٥ - قلعه جي: ابن حزم في المحلى ص ١٢ .

اليهود فقد استغلوا التسامح الديني، وأثاروا كثيراً من الشبهات حول الإسلام مما حثم على ابن حزم، وعلى غيره من علماء المسلمين، أيضاً، الرد والدفاع عن الإسلام^١. ومن ذلك ردُّ ابن حزم على قصيدة (نقفور فوقاس) إمبراطور الروم، التي أرسلها إلى الخليفة (المطيع لله) أثناء توليه الخلافة سنة (٣٣٤هـ). وهذه القصيدة هي افتخار على المسلمين، وتعرض لسبِّ الإسلام، وقد وردت على ابن حزم في مجلس المعتقد بالله، فاهتزَّ وارتجل قصيدة في الرد عليها^٢. إنَّ هذا الرد المتأخر - كما يسميه (محمد الخزعلي)^٣ - يؤكد أنَّ أحد أسباب المناظرة عند ابن حزم هو الصراع القائم بين الحضارة الإسلامية والبيزنطية، والذي من شأنه أن يثير حمية ابن حزم وغيرته.

وقبل أن نختم القول في أسباب المناظرات عند ابن حزم، نذكر سبباً مباشراً مهما للمناظرة عند ابن حزم، ألا وهو الإجابة على أسئلة وكتب الآخرين، فرغم أن أعداءه وخصومه كثر، إلا أن أصدقاءه لا يقلُّون عن ذلك، بل إنَّ له مؤيدين ومعجبين من خارج مذهبه، مما يدفع بعضهم لأن يوجِّه له سؤالاً ما، أو يرسل كتاباً يستفسر فيه عن موضوع ما. يقول ابن حزم في مقدمة أحد ردوده: "فإنَّ خطابك اتصل بي... ورغبتك في أن أبين لك وجه الحق في ذلك... فسارعت إلى ذلك متأيِّداً بالله عز وجل لوجوب نصيحة الناس"^٤. ويردُّ مرة على صديقه (أبي بكر) فيقول: "وإني لما احتللت بك وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون ديوانك"^٥. ومرة أخرى يقول: "فإنَّه وردني يا سيدي وأخي كتابك"^٦. ومرة يجيب على أسئلة سائلين: "ولقد أجدتم السؤال، وأنا أسأل الله تعالى أن يوفق لإصابة الجواب"^٧.

وما أجمل قول صاحب الذخيرة، حيث يصف حال ابن حزم وقد حُتَّ بالسؤال! "إلى أن يُحرَّك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء، ولا يقصُر عنه الرشاء، وعلى كل ما ذكرناه دلائل ماثلة، وأخبار مأثورة"^٨.

^١ - انظر: السيوطي: الجدل الديني ص ١٠٢-١٠٦.
^٢ - انظر: المنجد: قصيدة إمبراطور الروم ص ٣٨٥-٣٨٩.
^٣ - انظر: الخزعلي: رد متأخر ص ٣٣٥.
^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٣١.
^٥ - المصدر نفسه ص ٢/١٧١.
^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٧.
^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٤.
^٨ - ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ص ١٦٩.

٣- غايات المناظرة عند ابن حزم ونتائجها

يربط بين السبب والغاية خيطٌ رفيع، ففيما سبق استعرضنا الأسباب التي كوّنت شخصية الجدل عند ابن حزم، وهنا سنحاول وضع أيدينا على الغايات التي من أجلها انبرى ابن حزم للمناظرة والحجاج، أما الخيط الرفيع الرابط بين السبب والغاية فهو أنّ كثيراً من الأسباب التي استعرضناها آنفا كوّنت عند ابن حزم قناعات واعتقادات معينة، جعلت من المناظرة غاية له. وقبل أن نشير إلى غايات ابن حزم من المناظرة، نؤكد إنه "لم يكن ابن حزم يجادل من أجل الجدل ولا يبغي الغلبة والاستطالة بلسانه أو قلمه، أو السيطرة على المجالس"^١.

إن الاختلاف هو سر الحياة، وبلوغ الحق ودفع الباطل هو المحرك لهذا السر، وابن حزم باحث أصيل عن الحقيقة، شغوف بها، بل إنه يروي قصة من أحداث حياته تصور هذا العشق للحقيقة، وذلك أنه لما كان معتقلاً عند (المستكفي) محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر، وكان معرضاً للقتل في أي وقت، كان فكره مشغولاً بمسألة عويصة، وقع الجدل فيها قديماً وحديثاً، ثم لما لاح له الحق فيها، نسمعه يقول: "فبالله الذي لا إله إلا هو الخالق الأول... لقد كان سروري يومئذ وأنا في تلك الحال بظفري بالحق فيما كنت مشغول البال به، وإشراق الصواب لي أشد من سروري بإطلاقي مما كنت فيه"^٢.

إذاً لقد كان ابتغاء وجه الله هو الدافع والغاية الرئيسة عند ابن حزم من جدله ومناظرته، فكان "يكتب مبتغياً بعلمه وجه الله تعالى، قاصداً من وراء كتاباته تحقيق أكبر نفع ممكن لطالبي المعرفة من مواطنيه"^٣، وإنك لتحسّ بحجم ذلك الإخلاص، حين يردّ ابن حزم على خصومه، الذين تمّوا له الموت في إحدى مناظراته، إذ يقول: "والله لئن ميتاً، ما أسدّ قبورك، ولا أوفر عليكم رزقاً، ولأردنّ على ربّ رحيم... ولينصرنّ الله من ينصره، فهل تربصون بنا إلا إحدى الحسينيين"^٤. إنها إذاً، ثقة الإخلاص، وعزة ابتغاء وجه الله، والترفع عن مطالب الدنيا.

^١ - اليوسف: ابن حزم حياته - فلسفته ص ٩٧ .

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤٦/٣ .

^٣ - إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري ص ٦١ .

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢٧ .

ولا يقلّ إخلاص ابن حزم وابتغاؤه وجه الله، عن رغبته الجامعة في تعليم من حوله، وإظهار الحق لهم، فالغاية التعليمية من المناظرات كانت دائمة الحضور؛ "كونها [المناظرات] تمثل وسيلة مهمة من الوسائل العلمية المعروفة والمنتشرة في عصره"^١. ومن الطبيعي أن يشوب الغرض التعليمي جوٌّ من الودّ والبعد عن الفضاضة، غير أن ابن حزم استطاع أن يجمع بين الغرض التعليمي وجفوة القول، فيقول مثلاً رداً على سؤال أحدهم: "والاشتغال بالسؤال عن مثل هذا فضول"^٢. وفي رد على سؤال آخر؛ "وأما سؤالك... فما ظننت أن مسلماً يسأل هذا السؤال، وهل خبرٌ أصدق من خبر الله"^٣. وقد تثير بعض الأسئلة حفيظة ابن حزم: "ثم من عجائب الدنيا سؤالك عن قول الكفار - لعنهم الله - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، به جنة، ماذا أرادوا بذلك، أرادوا بذلك سواد وجوههم وحمقهم، أو عن مثل هذا يُسأل"^٤. إن هذا الانفعال مع الإجابة سيجعل من الإجابة أكثر حيوية وأرسخ وأعمق في عقل السائل ووجدانه.

لقد علم ابن حزم أن لا فائدة تُرجى من الحكم والسياسة، فاتجه نحو الناس يحاول تعليمهم وكسب تأييدهم، حتى عندما هُجر وأحرقت كتبه انصرف يعلم طلبة العلم ويفقههم، لأنه كان يرى أن في تعليم الجاهل "وتعديل طبعه ونصيحته في ذلك بالحق وتفهمه وتقبيح القبيح لديه، أفضل عند الله من كل نافلة"^٥. لذلك استهدف الناس، فنسمعه في إحدى مناظراته يقول: "اعلموا أيها الناس، علمنا الله وإياكم ما يقربنا منه ويزلف حظوتنا لديه..."^٦ وفي موضع آخر يحاول كسب تأييدهم فيقول: "فانظروا الآن من الزائر منا ومنهم، ومن الشاذ نحن أم هم وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل"^٧.

ولابن حزم غايات أخرى، تقارب ما أشرنا إليه آنفاً، ومن هذه الغايات أنه يريد أن ينزع تلك الهالة من التقديس عن أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة، وكان لأجل هذا يهاجم مذاهبهم^٨، حتى لا يوصفوا بالعصمة. على أن المساجلة والانتقام الشخصي لم يكن حاضراً ببال ابن حزم، فمرة أراد الردّ على كتاب أحدهم، لكنه بلغه وفاة هذا الرجل،

^١ - منشد: ابن حزم ومنهجه في دراسة العقائد ص ١٧٧.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٧.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٧.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٣٤٥.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٥٧.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٧٩.

^٨ - انظر: رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٥٧-٥٨.

ومع ذلك ردّ على المضمون؛ "فلم يكن لقصده [أي الخصم الذي مات] وقد صارت المقابر له مغنى، فلسنا بمسمعين من في القبور، فصرفت عنان الخطاب إليك".^١

وقد يُقرّر ابن حزم أحياناً، أن هؤلاء القوم لا يستحقون الردّ، لكنه يضطر للرد، وذلك لأن "عدم العقل ممن هذه صفته يوهمه بجهله إن أعرض عن مجاوبته أن ذلك عجز عن البيان وإجلال لهم ومهابة منهم".^٢

وقد يستغل ابن حزم المناظرة لتحديّ خصومه فيمن هو المحق "فإن شگوا في ذلك فالميدان بيننا وبينهم".^٣ وكان الهمّ الجماعي يؤرق ابن حزم، كما يؤرق غيره، فاستفاد من المناظرات في الوقوف بوجه الهجمة "التي اشتدت في ذلك العصر والدفاع عن الإسلام، عن طريق فضح مخططات أعدائه".^٤

كما أسهمت المناظرات بما يراه البعض بأنه "رغبة الأندلس في الاستقلال [يعني عن المشرق]... ليس في الفقه وأصوله، بل أيضاً في الاقتصاد والسياسة والأدب والفكر، والاجتماع وال عمران. فمن خلال منهج ابن حزم فُتح باب الاجتهاد وهُجرت الكتب الإبتاعية، وجُرب التأمل والبحث الحر، وشُجع الإبتكار والإبداع".^٥

غير أن بعض الدارسين، يرى أن المناظرات عند ابن حزم ما هي إلا اصطناع للجدل ومحاولة الغلبة فيها، وذلك ليدرك لذة تعوّض عليه ما فاتته من صور السلطان.^٦ ولنستمع لابن حزم يردّ على مثل هذا الزعم: "وأما قولهم: ليرفع الناس رؤوسهم إلينا فكذب واضح، وما أردنا قط التروّس على أمثالهم، ولو أردنا ذلك لسلكنا سبيلهم في التقليد، ولو فعلنا ذلك لما شقوا غبارنا في الرياسة في الدنيا، هذا ما لا يقدرّون على إنكاره".^٧

وبعد أن تنقلنا بين فلسفة ابن حزم في المناظرة وبين دوافعه وغاياته، ينتهي بنا المطاف عند نتائج مناظراته، فرغم الآلام التي لحقت بابن حزم، والمصاعب التي كابدها، فقد جنى ثمار ما قدّم، وما دراستنا هذه، ودراسات عديدة أخرى إلا واحدة من هذه الثمار، حيث حُدد اسمه، وأهمّل خصومه. وابن حزم - في الأساس - لا يريد جاهاً أو

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٢ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١١٠ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٨٧ .

^٤ - منشد: ابن حزم ومنهجه في دراسة العقائد ص ١١٧ .

^٥ - حسان: ابن حزم عصره ومنهجه ص ٢٨ .

^٦ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٩٣-٩٤ .

^٧ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٩ .

سلطاناً، بل إنه يستلذ المصاعب في سبيل دعوته، فلا تعنيه كثيراً المكاسب المادية، أو الذكر والشهرة.

على المستوى الفني، لن ننكر أن ابن حزم قد خرج كثيراً عن أصول اللياقة والآداب في مناظراته، وأطال لسانه وشتّم خصمه وعابه، ونحن إذ نعترف بذلك، فإننا قد نلتبس له - أحياناً - بعضاً من الأعذار؛ فظروف العصر الذي عاشه، ومرضه الذي صاحبه، يمكن أن تبرر جفاوته، كما أن سُخف خصمه وبجاحته ستضطره إلى الحدة، وأحياناً كان يدفع ابن حزم للحدة حرقة للحق وضيقه بالباطل.

ما عدا هذا، فإن ابن حزم بارع في جدله، يأخذ بلب سامعه، ويظهر نزاهة وموضوعية كبيرة، ولا يُفلس دليلاً للخصم إلا ناقشه وأبطله. وننقل هنا وجهة نظر تقول أن "ابن حزم برع في الجدل، ما في هذا ريب، ويغلب على مؤلفاته السمة الجدلية، وكان يلتزم أدلة مخالفه بأمانة علمية نادرة، وكان يذكر لهم قرائن يُظن أنها تدل على صحة قول مخالفه، ولكنها عند التمهيص يثبت عدم جدواها... ولكن رغم هذه النزاهة والموضوعية في مواقف ابن حزم الجدلية، ودعوته إلى وجوب الإنصراف إلى البرهان الصحيح أيّاً كان صاحبه، ففي بعض المواطن نرى أن كلامه لا يخلو من تحيز وأحادية النظر... يضع النتائج التي سوف ينتهي إليها في جدله مقدّماً، وهي صحة مذهبه الذي لا يمكن أن يعارضه أحد أبداً، مما قد يُفسد استعداده لقبول قول الخصم"^١. وليس هذا المقام مقام دفاع عن ابن حزم، لكننا نقول: إن كل إنسان من حقه أن تكون له قناعاته التي يجادل عنها، والحكم في النهاية لا يكون إلا على ما ظهر من إتباع أو مخالفة لقواعد المناظرة.

ومع ذلك كله "قد يأخذ عليه الكثيرون أنه لم يراع في جداله كثيراً من الشروط التي نصّ عليها في كتبه، ولكن من المؤكد أن جدل ابن حزم لم يكن من ذلك النوع المذموم... ونحن لا ننكر أن ابن حزم قد أشتط أحياناً في حكمه على بعض عقائد أصحاب الفرق الأخرى، ولكننا نميل إلى الظن بأن هذا الشطط لم يكن وليد مكابرة أو عناد، بل كان مجرد تعبير عن إيمانه العميق بأن المساومة في الحق خيانة فكرية كبرى"^٢.

^١ - السيوطي: الجدل الديني ص ١٤٤، ١٤٣.

^٢ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ١٥٠-١٥١.

ويمكن أن نقول أن ابن حزم وليدٌ شرعي لعصره ومجتمعه وبيئته، بل إنه من المستغرب أن لا تُنتج تلك العواملُ كلها التي عرضناها شخصية أخرى، غير التي عرفناها، ولكننا نرجع عدم القبول الذي لاقاه ابن حزم في عصره إلى الانسجام بينه وبين زمانه، لقد كان ابن حزم يفكر ويكتب ويعيش خارج زمانه وعصره.

٤ - الظاهرية وأثرها في مناظرات ابن حزم

لا يمكن بحال من الأحوال قصر المنهج الظاهري على الفقه وأصوله، فقد امتدَّ عند ابن حزم، فشكل أسلوباً عاماً في التعاطي مع جميع الأمور، وابن حزم إذ ناضل من أجل مشروعه الظاهري، فإنه كان بهذا المنهج يناضل، فأصبح الظاهر هو الغاية والوسيلة في الوقت ذاته.

ومن غير الممكن فصل ابن حزم عن ظاهريته، فهي تشكّل نسقاً تفكيرياً متكاملاً يعالج كل المسائل - على اختلافها - بكيفية معينة، كما لا يمكن فصل الظاهرية عن ابن حزم، فإنه وإن لم يكن مؤسسها، فهو أبرز مجدديها وله الفضل في بقائها.

في هذا الجزء من الفصل، سيتّحتم علينا الاقتراب أكثر من الظاهرية عموماً، ثم الاقتراب أكثر وأكثر من ظاهرية ابن حزم، وكيفية تناوله للعلوم من خلال هذا المنهج، لنصل إلى غايتنا، وهي أثر هذه الظاهرية في ابن حزم وفي مناظراته على وجه التحديد. تُعرّف الظاهرية بأنها: "مذهب في الفقه يأخذ الشريعة بظاهر لفظ القرآن والسنة، وهو بعد يزيد من فروع الفقه في عدد القواعد المُفصلة المتباينة بالإتيان بعدة خلاقات تختص به وحده، وأهم من هذا أثره في أصول الفقه، فقد توسع كثيراً في تنميتها وتوضيحها بإنكاره المتشدد للرأي، والقياس، والاستصحاب، والإستحسان، والتقليد"^١. والظاهرية مشتقة من (الظاهر) والذي هو "خلاف الباطن... ولفظ القرآن والباطن تأويله"^٢. أما الظاهر في الاصطلاح فهو: "اللفظ الذي دلّ على معناه دلالة واضحة بلفظ من غير توقف"^٣.

ويُعدّ (أبو سليمان داود بن علي الأصفهاني) (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) مؤسس الظاهرية في المشرق، وقد نشأ هذا المذهب متأخراً عن المذاهب الفقهية الأخرى مما

^١ - هوتسما: موجز دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٢/٧٠١٠.

^٢ - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة ظهر ص ٤٣٤.

^٣ - الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ١٠٩.

مكّنه من الاستفادة منها جميعاً^١ ويمتاز هذا المذهب من غيره بأنه يقصر الأصول المعتمدة في الأحكام على نصوص القرآن والحديث وعلى الإجماع والدليل، مع الالتزام بظواهر هذه النصوص، كما أنه ينبذ التقليد والقياس والرأي والتعليل^٢.

و يساوي هذا المذهب بين الصحابة، حيث إنّه يأخذ بكلامهم ما لم يختلفوا، فإن اختلفوا فليس قول بعضهم أولى بالقبول من بعض. وينظر كذلك بتساوٍ إلى أئمة المذاهب دون التعصب لأحد. كما أنه لا يعتد بالكثرة فالكثرة ليست حجة بذاتها^٣.

ولعل العلاقة بين الظاهريين وغيرهم، كانت أوثق ما تكون مع (المُحدثين) فأصحاب الظاهر في الأساس محدثون، ودادود بن علي، نفسه، تلقى علمه على المحدثين، كما أن المحدثين لا يستعملون القياس والرأي إلا عند الضرورة، حتى إنّ (الإمام أحمد بن حنبل) يفضل الحديث الضعيف على الرأي، وهذا كله قد مهد الطريق للظاهرية لإلغاء الرأي والقياس تماماً^٤.

ولكن ما حقيقة جفاء الظاهرية للعقل وتضييقها الخناق على طرق استنباط الأحكام؟ وما هو موقف الظاهرية من العقل؟ "تمثل الظاهرية نسقاً عقلانياً، يقوم على عناصر الضروريات والبديهات والعلاقات التي ترغّب المعرفة غير الضرورية وغير البديهية تركيباً يستند إلى هذه الضروريات والبديهات، وبهذا ينتج نسق الظاهرية العقلاني معرفته اليقينية"^٥.

إن التركيز على جانب الظاهرية الحرفي، أغفل مناصرتها للعقل والمعقول، وقد سادت الفكرة عند كثيرين أن المذهب الظاهري يقف عند الدلالة الحرفية للنص، ويرفض الاستدلال بجميع أشكاله مُكرّساً بذلك الجمود والانغلاق. لكن الأمر - في حقيقته - على العكس من ذلك، فقد كانت الظاهرية وراء أحد أكبر الثورات الفلسفية التي عرفها تاريخ الفلسفة في الإسلام، وكانت ظاهرية ابن حزم، تحديداً، ممهدةً لظهور المدرسة الفلسفية بالمغرب^٦.

ولنقرأ رأي (إحسان عباس) في الموضوع ذاته: "يقول بعض المتسائلين المتشككين: وماذا في هذه الظاهرية سوى تضييق المجال في التشريع... الجواب على

^١ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ١١١ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ١١٨-١٢٤ .

^٣ - انظر: عويس: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي ص ٩٢-٩٣ .

^٤ - انظر: حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ٦٧ نقلاً عن الاتجاهات الفقهية لعبد المجيد محمود.

^٥ - الديري: طوق الخطاب ص ١٨ .

^٦ - انظر: يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس ص ١٠٠، ١١ .

هذه الدعوى أن ذلك لا يمثل إلا (الظاهر) الخارجي للظاهرية، لأن الظاهرية في حقيقتها ثورة على التقليد وبداية لبناء شخصية الفرد، واحتكام إلى الصواب المحض الجازم لا إلى الصواب المحتمل... إن الظاهرية لا تقف حجر عثرة في سبيل الذكاء الفطري ولا تقيم دونه الأسوار"^١.

بل إن هناك من يرى في الظاهرية تحفيزاً وإعمالاً أكبر للعقل، فغير الظاهريين لديهم وسائل متعددة لمواجهة الوقائع، ابتداءً بالنص وانتهاءً بالرأي والقياس والتعليل، لكن التحدي الأكبر الذي واجهته الظاهرية هو التصدي لجميع الوقائع والمستجدات الحياتية بالنص وحده، وقد نجحت إلى حدود معينة في ذلك، كما أن الذين خاضوا هذا المذهب فُتِنُوا فيه، وأبهرهم منطقهم، وقلمًا عادوا عنه، وفي هذا يقول (أثير الدين بن حيان): "محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علقَ بذهنه"^٢.

ولنترك المذهب الظاهري في المشرق، ونتجه غرباً، حيث الأندلس، فهي ما أكثر ما يعيننا في دراستنا هذه. ففي الأندلس دخل المذهب الظاهري، لكنه بقي محصوراً جداً لغلبة المذهب المالكي، وأول من أدخل فقه داود الظاهري وكتبه الفقيه (عبد الله بن قاسم ابن هلال) ثم تفقه عليه أشهر فقهاء الظاهرية في الأندلس (منذر بن سعيد البلوطي)، (٣٥٥هـ/٩٦٦م)، كما تفقه عليه أحد شيوخ ابن حزم وهو (أبو الخيار سعيد بن مفلت)^٣ ثم جاء مجدد الظاهرية، ابن حزم، والذي لولاه "لما عُرفت الظاهرية، فكتابه (الإحكام في أصول الأحكام) يُعدّ أساس هذا (المذهب) من الناحية النظرية، إلى جانب الكتب الأخرى في نفي القياس والإجماع والتعليل والتقليد"^٤.

ويمكن القول إن طريقة جديدة انبثقت عن المذهب الظاهري، يمكن تسميتها (المذهب الحزمي)، وأصبح لها أتباع، هم مريدو ابن حزم وتلاميذه، وأهمهم: (صاعد) صاحب (طبقات الأئم)، والفقيه (ابن عبد البر)، و(أبو النجاة القرطبي) الذي أذاع نسخ مؤلفات ابن حزم، و(الحميدي) المؤرخ، و(أبو محمد بن العربي) والد الفقيه المعروف (أبي بكر بن العربي).

^١ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام، مقدمة إحسان عباس ص ٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٤-١٥/٢. نقلاً عن الدرر الكامنة.

^٣ - انظر: الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ١١١-١١٤.

^٤ - فارح: أثر ظاهرية ابن حزم على الحياة الفقهية والسياسية ص ٢١٧.

ثم أنتقل المذهب الحزمي إلى المشرق، وانتقل كذلك إلى المغرب حين مال (محمد بن تومرت) مهدي الموحدين إلى هذا المذهب، والذي لم يلبث أن ضعف جداً بانتهاه أمر الموحدين^١.

أما تعريف الظاهرية عند ابن حزم، فرغم انه لم يُعرّفها بشكل مباشر، إلا أنه قال ملمحاً لها: "واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه"^٢.

فلماذا اختار ابن حزم المذهب الظاهري؟ ولماذا ثبت عليه بعد أن تمذهب لمالك والشافعي؟ لقد اختار ابن حزم الظاهرية بتأثير ظروف فكرية وتاريخية، ففي عصره كان الانحلال والفوضى، خاصة عند الفقهاء، هو السائد، فكانوا يبررون لأمر الطوائف طغيانهم وابتزازهم لأموال الناس، مما جعل ابن حزم مقتنعاً أن كل هذا حدث في غياب الشريعة، لأن الشريعة السائدة قد أسيء استخدام أدواتها، لتبرير الفساد، وقد كان ابن حزم خير من يمكن أن تظهر على يديه ردة الفعل على هذا الوضع، فهو عالم واسع الإطلاع، لا يطلب الدنيا، وما دام قد فشل في تحقيق الإصلاح عن طريق السياسة، فليجرب إصلاح الشريعة، والتي بدورها ستصلح المناحي الحياتية كافة^٣.

ولا يعني هذا، أن تلك الأهداف جعلت ابن حزم يتنازل عن منطقيته وفكره لأجلها، لأنه فعلاً آمن بالظاهر، وقد انطلق من فلسفة بديهية بسيطة، لكنها تحمل عمقاً كبيراً نستشقه من هذا النص: "ونحن نعلم أن الله تعالى إذا نص على شيء فهو الذي أراد منا، ولو أراد غير ما خاطبنا به لبيّنه لنا بلا شك"^٤.

وابن حزم "لم يكن جامداً كما يتخيل هؤلاء، لا ينظر إلى أبعد من انفه بل كان مفكراً منطقياً وإن خانت منطقيته في بعض الأحيان"^٥. فالجوهر حاضر في ذهن ابن حزم، ومن ذلك قوله: "واعلموا رحمكم الله أن من تعمد اللهو واللعب حتى مضى وقت صلاة مفروضة ولم يُصلّها، أخفّ ذنباً ممن صلاها لأجل الناس"^٦ - فكما هو واضح من النص - نلمس انحيازاً للجوهر على حساب المظهر.

^١ - انظر: بالنشأ: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٣٧-٢٣٨.

^٢ - ابن حزم: الفصل ص ١/٣٢٧.

^٣ - انظر: عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٨٧-٨٩. وانظر: حسان: ابن حزم الأندلسي: عصره ومنهجه ص ٧٨-٨٢.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم: ٣/١٠١.

^٥ - قلعه جي: ابن حزم في المحلى ص ١٤.

^٦ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٧٠.

وعند رصد تأثير ابن حزم بالظاهرية، فبلا شك كان تأثيراً عميقاً ممتداً يشمل جوانب الفكر كلها، فكان ابن حزم ظاهرياً في فقهه وفنّه وعلمه وأدبه، وتاريخه وجدله و كلامه وفلسفته وفي شعره أيضاً^١. والحق أنّ ابن حزم "لم ينس ظاهريته وهو يجوب كل هذه الآفاق"^٢.

لقد كانت منهجية الظاهرية ثورة على التوجهات المعرفية السائدة في عصر ابن حزم. هذا على مستوى المعرفة، أما على المستوى الحياتي لابن حزم، فقد جعلت منه مستقيم الطبع لا التواء فيه ولا تعقيد، وكانت شخصيته متوحدة، مجتمعة لا تفكك فيها ولا تنافر في ظواهرها^٣.

ولنستعرض أثر الظاهرية في المنهج العلمي الذي اتبعه ابن حزم، سواء في المعقول أو المنقول، ونتعرف على أدوات البحث والتحليل المعتمدة للحصول على المعرفة والوصول إلى النتائج؟ لعل موقفاً طريفاً نورده هنا، يرسم لنا كيفية تعامل ابن حزم مع المعارف، ففي رؤيا رآها في المنام مؤلف كتاب (البداية والنهاية) الإمام (ابن كثير)، حيث رأى فيها الإمام (محيي الدين النووي)، فسأله لم لم يدخل في شروحه مصنفات ابن حزم؟ فأجابه النووي بأنه لا يحب ابن حزم. وقد عذره ابن كثير على عدم حبه، لأن ابن حزم - كما يقول ابن كثير - "في الفروع فظاهري جامد يابس، وفي الأصول تول مائع قرمطة القرامطة"^٤. تصوّر هذه الرؤيا كيفية تعاطي ابن حزم مع المعقول والمنقول، فقد انتهج في المنقول من النصوص النهج الآتي :

أولاً: حصر هذا المنقول في القرآن والسنة الصحيحة والإجماع، وما ينشأ عنها بالدليل. ثانياً: فهم جزءا من هذا المنقول على ظاهره بحيث لا يتعارض مع المعقول، وأول الجزء الآخر تأويلاً ظاهرياً على مقتضى (الدليل) الذي أرجعه إلى الحسّ والعقل والنص والإجماع.

أخيراً: أبقى ما لم يرد فيه نص على (الوقف)^٥.

^١ - انظر: حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ١٠٣ و ١٦٢ .

^٢ - عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي ص ٨٥ .

^٣ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٢٦ .

^٤ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٣٤٧ نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير.

^٥ - انظر: الزعبي: ظاهرية ابن حزم ص ١٥٧ .

أما في مجال المعقول، فقد بحث أولاً عن قاعدة أولية فيه، فوجدها في الأوائل الحسية والعقلية، ثم بنى عليها وعلى المشاهدات والتجارب، وجعلها مقدمات يستدل بها على وجود الله تعالى^١.

أما عن طرق الحصول على المعرفة، عموماً، فقد حصرها ابن حزم في طرق، أهمها: العقل والبدييات العقلية والحسية، ثم المقدمات التجريبية الراجعة إلى ما صححته المشاهدة والتجربة، ثم المقدمات الإخبارية كالقضايا التاريخية والدينية^٢. وأما المنهج التحليلي الذي اعتمده ابن حزم، فكان يردّ القضية إلى الخبرات السابقة عنها أولاً، ثم يتجه إلى تحليلها، كما تبدّت عبر المشاهدة والتجربة^٣. أما ما يخصّ التأويل، فلم يقل به ابن حزم إلا استثناءً "ونحن لا نقول بالتأويل أصلاً إلا أن يوجب القول به نص آخر أو إجماع أو ضرورة حس"^٤.

كان يجب أن نستعرض المنهج الظاهري والمنهج الحزمي، حتى نرصد أثره في المناظرة، لأن المناظرة رغم تميزها النوعي، تبقى جزءاً من مؤلفات ابن حزم، لا تفرق كثيراً، من ناحية أيديولوجيا التفكير، وآلية قبول الحقائق. ولعل الملمح الظاهري الأبرز، الذي ظهر في مناظرات ابن حزم هو التمسك بالرأي والموقف، فقلما غير أديبنا رأياً أو قناعة ما، كنتيجة للمناظرة، بل إن مناظراته الكبرى مع (الباجي) مثلاً، لم تزرحه قيد أنملة عن آرائه، ويمكننا ردّ هذه العناد إلى أمرين: "أولهما أنه لا يشك في آرائه بأي نوع من الشك، وأنه يعتقد بأنه لا حجة مطلقاً عند خصومه... والأمر الثاني... اعتقاده أنّ الظاهرية أهل البحث وتخليص الحقائق"^٥.

كما كان للفهم الظاهري أثرٌ في خلق فهم جديد لبعض القضايا، كقضية النميمة - مثلاً - فطبيعة المناظرة، وما يسبقها وما يلحقها من كلام على الخصوم تستوجب تغييراً في النظر إلى هذه القضية، وصرفها عن الإثم المرتبط بها، لهذا يقول ابن حزم: "وليس من نبّه غافلاً، أو نصح صديقاً، أو حفظ مسلماً، أو حكى عن فاسق أو حدّث عن عدوه، -

^١ - انظر: الزعي: ظاهرية ابن حزم ص ١٥٦ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٦٧ .

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ١٥٥ .

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٠ .

^٥ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٦٤ .

ما لم يكن يكذب ولا يكذب ولا تعتمد الضغائن - منقلأ وهل هلك الضعفاء، وسقط من لا عقل له إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام^١.

وكان للموقف الحزمي من اللغة أثرٌ في عملية التواصل اللغوي مع الخصوم، وبما أن الموقف الحزمي والظاهري عموماً، يتعامل مع اللغة بأنها (توقيفية)^٢، فدلالة اللفظ ستتحصر فيما يفهمه السامع، وقد ينحدر هذا الفهم إلى حد السذاجة، ففي رده - مثلاً - على أحد الخصوم الذي قال له: "أنائم أنت أيها الرجل بل مفتون جاهل أو متجاهل"^٣، فأجاب ابن حزم: "فما نحن، والله الحمد، إلا أيقاظ إذا استيقظنا، ونيام إذا نمنا"^٤.

لا يمكن أن يُنكر حق أي كان في زعمه أنه يمتلك الحقيقة، والفيصل بعد ذلك للدليل والبرهان، كما يُمكن استيعاب التعصّب المعقول الذي يبيده مدعي الحق، لكن من غير المقبول إطلاقاً، أن يصل إلى حد حصر الحق بما يملك من زعم، وإلغاء الصواب عن الآخرين، وبشكل لا يقبل التراجع!

لقد أثرت الظاهرية على ابن حزم في كيفية التعاطي مع (الحقيقة)، ومن ذلك قوله: "فالحق لا يكون شيئين مختلفين ولا يمكن ذلك أصلاً"^٥. مبدئياً، يمكن موافقة ابن حزم على أن الحق لا يتجزأ، لكن الاختلاف سيظهر عند تحديد (الحق) لأن التباين هو سيد الموقف. والأمر مشابه حين يقول في موضع آخر: "والحجة كلها هي القرآن والسنة لا ترك تارك ولا أخذ آخذ، والحق حق أخذ به أو ترك، والباطل باطل أخذ به أو ترك، وما عدا هذا فهذر وهذيان"^٦. لقد خلف هذا الفهم الحاصر للحق في صالح ابن حزم، إنقاصاً للموضوعية أو الاستعداد لقبول الرأي الآخر من الخصم.

ومع كل الذي قلناه، عن ادعاء ابن حزم الحقيقة والصواب، فإن ذلك سيبقى في دائرة المُعتقد، ولن يؤثر إجرائياً على المناظرة، فقد كان ابن حزم - فيما عدا ما أسلفنا - موضوعياً في مناظراته إلى أبعد الحدود، يقول ابن حزم: "ولا بد لطالب الحقائق من أن يسمع حجة كل قائل، فإذا أظهر البرهان لزمه الانقياد والرجوع إليه، وإلا فهو فاسق"^٧.

^١ - ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٧٩.

^٢ - انظر: الزعبي: ظاهرية ابن حزم ص ١٢٠-١٢١.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢١.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٢١.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٩٧.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٨٤.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٩٧.

لقد توأمت الظاهرية بين ابن حزم وبين البرهان، ولقد أوجدت عشقاً من نوع فريد في كيان ابن حزم تجاه الدليل! حتى إنّ تعرّس ظهور الدليل على لسان الخصم، فلا يمنع هذا من الانصياع والإنقياد له، يقول ابن حزم: "فلا ترضى لنفسك من خصمك ولا من نفسك لخصمك إلا بالحق الواضح"^١.

و هنا قصة حكاها ابن حزم عن نفسه، يقول إنّه ما رواها إلا ليسهل على السامع الإنصاف من نفسه، وذلك أنه ناظر رجلاً فغلبه، فلما عاد ابن حزم إلى البيت وجد في بعض الكتب برهانا يثبت صحة قول خصمه، فوضع إشارة على هذا الدليل من الكتاب، فشاهد ذلك صاحباً له حضر المجلس معه، فأخبره ابن حزم بهمّة أن يذهب إلى خصمه ويخبره، فحاول ثنيه وقال له: وتسمح نفسك بهذا؟! فقال له ابن حزم: نعم، ولو أمكنني في وقتي هذا لما أخرته إلى غد^٢. بل إن ابن حزم تطرق إلى أدق المواضيع النفسية في المناظرة فقال: "ومما يحق على من أراد أن يقضي بالحق ألا يكون معادياً لمن خالفه"^٣. ربما استطعنا بما أسلفنا، تكوين صورة عن المذهب الظاهري، وعن الطريقة الحزمية خاصة، وعن سبيلها في تحصيل العلوم والمعارف، ومناهج التحليل عندها، ورصد كيفية تأثير هذا المنهج (الظاهري) في الموقف المبدئي لقبول الحقائق، ثم في كيفية معالجة هذه الحقائق، وأخيراً كيف تبدّى المنهج الظاهري في المناظرة من خلال موضوعية كبيرة، لا يشوبها سوى المنهج نفسه.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٣٢ .

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٣٧-٣٣٨ .

^٣ - المصدر نفسه ٤/٣٨٩ .

الفصل الثالث

منهجية ابن حزم في المناظرة

- ١ - طبيعة المناظرة عند ابن حزم وترتيبها
- ٢ - حدة لسان ابن حزم في مناظراته
- ٣ - الموضوعية وروح البحث والصدق في مناظرات ابن حزم
- ٤ - توظيف المعارف والعواطف في مناظرات ابن حزم
- ٥ - الأدلة والبراهين في مناظرات ابن حزم
- ٦ - نتائج مناظرات ابن حزم

في هذا الفصل، سنحاول التعرف على طبيعة هذه المناظرات، وكيفية انعقادها، وكيف كان يناقش ابن حزم خصومه، وكيف كان يحاورهم ويناورهم، ثم سنتناول قضية مهمة، عُرف بها ابن حزم وهي حدة لسانه، وسنتوضح أسبابها ومبرراتها، ثم سنحاول الحكم على موضوعية ابن حزم وأمانته وشجاعته في المناظرة، ثم سنرى قواعد الاستدلال والتعاطي مع الأدلة عنده، وأخيراً سنرى النتائج قريبة وبعيدة المدى لهذه المناظرات، وسيكون كلام ابن حزم في مناظراته، هو المنطلق الأساسي، الذي سنعالج فيه القضايا التي أشرنا إليها كافة.

١ - طبيعة المناظرة عند ابن حزم وترتيبها

هذا الجزء من الفصل، مخصص للنظر في معمارية المناظرة، وبنائها الخارجي، من حيث أماكن انعقادها، وكيفية تناول ابن حزم للمسائل في المناظرة والرد عليها، وكيفية ترتيب الإجابات، وطريقة التعامل مع الخصم في الججاج. ولننطلق في رصد معمارية المناظرة، من حيث المكان، فغالباً ما كانت تتم في مجالس عامة أو في المساجد، أو في أماكن العزاء، وقد ذكر ولد ابن حزم أن مناظرات أبيه مع الباجي كانت في مجلس اجتماع به^١، وأشار ابن حزم نفسه، إلى أحد تلك الأماكن، يقول: "ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي..."^٢.

ولعل أهم ميادين المناظرة وأكثرها صدقا هي بطون الكتب، فقد كانت ساحة ابن حزم المفضلة، "وقد دوّن في بطون الكتب تلك المساجلات والردود في قول محكم،

^١ - انظر: الحموي: معجم الأدباء ص ١٦٥١-١٦٥٢.

^٢ - ابن حزم: طوق الحمامة ص ١١٤.

وعبارات جزلة هي بين لغة العلم ولغة الأدب"^١، ولعل هذا التدوين هو الذي حفظ لنا المناظرات حتى الآن.

إن نزعة الجدل كانت مشتتة الجذوة عند ابن حزم، فلم "يكتف بمجالس المناظرة التي كانت تنعقد بينه وبين خصومه من هذه الطوائف المختلفة وكانت متمثلة في الأندلس تمثيلاً وافياً، بل جعل يضع الرسائل والكتب"^٢. كما لم تحل المسافات بين ابن حزم ومناظريه، فقد كان يكتب للرد على خصمه، وكان الخصوم أيضاً، يرتّون عليه من أماكنهم البعيدة، "وقد كتب الحميدي إلى ابن حزم من العراق ليخبره بصحة هذا الحديث، ويبين له أمر هذا الرجل، فلا أدري أرجع عن قوله أم لا"^٣. وأحياناً، كان هناك (سفير) للمناظرة، يراوح بين ابن حزم وخصومه، "وأبو محمد كان بينه وبين أبي محمد بن حزم مسائل وجوابات وقد سفر بينهما محمد بن الدباغ"^٤.

ويسجل لابن حزم، أنه لم يخطب في جدله خبط عشواء، بل كان مرتباً بشكل غير معهود، ومنظماً في طرحه للموضوع وسوقه للأدلة. فأول ما يواجه المتلقي من المناظرة، المقدمة، ومن أجل ذلك اعتنى بها ابن حزم، ولم يترك لمتلقيه عناء التكهن وتخمين الموضوع، فإن كان المردود عليه معروفاً، صرح باسمه، "كتب [أبو] محمد - رحمه الله - في جانب الكندي"^٥، وأحياناً كان يضع القارئ في صورة النقاش، من خلال إيراد آية كريمة، تمهد للموضوع^٦. وفي أحيان أخرى كان يطرح عدة أسئلة، تشوّق المتلقي لموضوع المناظرة، ففي مناظرته الغريبة، التي يجريها بينه وبين نفسه حول معرفة النفس بذاتها وجهلها بغيرها، يقول: "يا أيتها النفس المعجب شأنها فيما علمت وفيما جهلت: هل تذكرين أين كنت ومن أين أقبلت..."^٧.

كما كان لابن حزم انطلاقات متعددة، فإما أن ينطلق من الخاص إلى العام - وهو الغالب - وإما أن ينتقل من العام إلى الخاص، بمعنى أنه يطلق الحكم على خصمه، ثم يناقشه في جزئياته؛ "إن هذا كلام مخلط في غاية التناقض، أما قولهم عنا بضعف الرواية والتعري من الشيوخ، فلو كان لهم عقول لأضربوا عن هذا، لأنهم ليسوا من أهل

^١ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٧.

^٢ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٣.

^٣ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٥٨. نقلاً عن الوهم والإيهام لابن القطان

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٣٨٢. نقلاً عن الصلة لابن بشكوال.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٨٥.

^٦ - انظر: المصدر نفسه ص ٤/٣٨٢.

^٧ - المصدر نفسه ص ١/٤٤٥.

الرواية"^١. وقد أعطت القدرة العقلية الكبيرة لابن حزم متسعاً أكبر في التعامل مع الأدلة، ومكنته من التعامل بشمولية مع أدلة الخصم جميعها في مسألة ما؛ "فإني أجمع لك كل ما مضى"^٢. إننا نعتقد أنّ دراسة ابن حزم لعلم المنطق وتأثره به، جعله يتبع قواعد هذا العلم في البناء الشكلي للمناظرة على الأقل؛ "فنحن نجد لدية عقلية منطقية مرتبة، تحسن تقديم المقدمات وإنتاج النتائج، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد، وتعرف كيف تسير في عرض موضوعاتها بطريقة منهجية منظمة"^٣.

كما أئسم طرح ابن حزم للمسائل بالسهولة والبعد عن التعقيد، وذلك حتى يصل إلى عقول الناس، ويؤثر فيهم، ويقربهم من فكره ومشروعه، فلم تكن المعركة تدور بينه وبين خصومه سرّاً، بل كان يجليها، لأن المناظرة - في حدّ ذاتها - فرصة لنشر فكره ومذهبه، فتراه يصرّح بسبب المناظرة فيقول - مثلاً - "فإن كتابين وردا عليّ..."^٤. كما كان مهتماً بوصول إجاباته إلى خصومه وسامعيه، دون أدنى لبس، فكان يرتب أجوبته بناء على ترتيب أسئلة سائله "وأما ما سألتكم عنه من أي الأمور أفضل... وأما ما سألتكم عنه مما روي في حديث التنزيل..."^٥.

وكان يفصل بين أقواله وأقوال مناظره بوضوح بالغ: "هنا انتهى قولك"^٦. كما كان يفصل بين الموضوعات بعناوين فرعية بارزة: "والوجه الثاني... والوجه الثالث..."^٧. فإذا كان الأمر الذي يتحدث فيه زائداً عتوّن له، حتى لا يختلط مع الموضوع الأصلي: "وهذه زيادة تبين على من ألد في أسماء الله"^٨.

وقد كان لابن حزم لازمة خاصة به، بل إنّ فقدان هذه اللازمة في أي مؤلف لابن حزم، سيشكك في نسبة هذا المؤلف إليه، "ويمتاز ابن حزم بأسلوبه باستخدام لفظ (قال أبو محمد) كثيراً لتنبيه القارئ إلى أمور"^٩، ومن تلك الأمور: أن يفتتح بها فقرة جديدة،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٨١-٨٢/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٩٢/٤.

^٣ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٥٧.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١١٩/٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٧٢/٣.

^٦ - المصدر نفسه ص ١٩٤/٣.

^٧ - المصدر نفسه ص ١٣٤/٣.

^٨ - المصدر نفسه ص ٣٨٢/٤.

^٩ - منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد ص ١٦٤.

أو يورد بعدها المصدر الذي يأخذ معلوماته منه، أو ينقل بعدها آراء غيره أو أدلة خصومه، أو يربط بها بين موضوعين^١.

وربط الأمور ببعضها سمة مميزة عند ابن حزم، فكثيراً ما يربط المسألة بغيرها مما شابهها، حتى أنه يربط ما يقوله في موضوع ما، بما قاله في موضع آخر من مؤلفاته، "والروح والنفس شيء واحد بدلائل تكثر ذكرناها في كتاب الفصل"^٢. وحتى يللم ابن حزم المسائل ويحصرها في ذهن متلقيه، كان يجمعها ويعيدها ملخصة: "قد لخصتها وفسرتها، ثم أعيدها لكم مختصرة، ليكون أقرب للذكر وأسهل للحفظ"^٣. وكان يهتم بقفل الموضوع كما يهتم ببدايته، فيضع خاتمة لكلامه: "فهذا جميع هذه المسألة، والحمد لله رب العالمين، ثم السلام عليك أيها الأخ المحمود"^٤.

إن القدرة الكبيرة على الإقناع التي حازها ابن حزم، كانت بفضل مهارته الكتابية، ولا أقصد هنا المهارات التصنيعية أو الزخرفية إطلاقاً، بل إن نمط كتابته السهل والسيال هو ما أعطى ابن حزم ميزته هذه، وحطم الحواجز بينه وبين متلقيه، كما أسهم استيلاء ابن حزم على موضوعه استيلاءً كلياً، بجعل عرض هذا الموضوع متعة للقارئ أو للسامع، كما أن حسن التقسيم كان معيناً للمتلقي على الفهم.

وتتسم مناظرات ابن حزم بطول النفس، فقدرة هذا الرجل فائقة للغاية في محاوره الخصم ومناورته، إلى حد كبير، فرغم ضيق صدر ابن حزم بخصمه، في أحيان كثيرة، إلا أنه لم يكن يترأخى أبد في المجادلة، أو يكتفي بأقل ما يمكن أن يقال، أو حتى يعتمد على ذكاء مقابله في الفهم، بل كان يُشبع موضوعه ويزيد عليه، "إن ابن حزم أوجد لنفسه أسلوباً مميزاً، استطاع من خلاله أن يبين الحقائق بوضوح، رغم كون الإسهاب والأطناب في بعض المواضيع من مميزات كتابته، إلا أنه حافظ على نفس طویل في إدارة دفة النقاش"^٥.

كما لا يملّ ابن حزم من تكرار السجال في القضية ذاتها، ولعل ما يبرر هذا أحياناً: "وقد تتكرر التهمة (أو القضية) فيتكرر الرد عليها في غير رسالة، لطبيعة الحياة يومئذ،

^١ - انظر: منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد ص ١٦٤-١٦٥.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢١.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٩.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٣.

^٥ - منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد ص ١٦٤-١٦٥.

وطبيعة الحصول على الكتب والرسائل"^١. ولنأتي إلى شاهد من مناظرات ابن حزم، يصدّق ما قلناه من طول نقّس، وتحمل شديد في الإعادة والتكرار، فبعد أن يردّ حجج الخصم يقول له: "ثم أنا أبتدئك بما يلزم بعضنا لبعض من بيان الحق وتعاطي البراهين"^٢.

أما الاستطراد، بمعنى الخروج عن الموضوع، فلم يكن يأتي في مناظرات ابن حزم، حتى إنّ كثيراً من القضايا السياقية، التي تمرّ في المناظرة، وهي من النوع الذي يشدّ ابن حزم، لم يكن يتوقف عندها، وربما ألمح إليها دون توسع، وفي تعليقه على أحد الموضوعات يقول مستطرداً: "وهاهنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها"^٣. وكل الزيادات والاستطرادات التي ذكرنا، لم تكن عبثاً، وكان تزويد ابن حزم منها، فقط فيما "دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه"^٤، وفي موضع آخر، يصرّح بأنه إنّما يزيد ويوضّح: "ومن الزيادة في إيضاح قولنا في العلة والمعلول أنّ نقول..."^٥.

وأحياناً، لا يكفي ابن حزم بالردّ على الخصم، إنّما يأتي بما يدين هذا الخصم، فينتقل من موقع الدفاع إلى الهجوم، ومن ذلك أنّه حين أكمل الرد على شبهات (ابن النخيلة) قال: "ولكن ليذكر هذا الجاهل على ما يفتتحون به كذبهم المفترى وبهتانهم المخلّق الذي يسمونه (التوراة) إذ يفترون أنّ الله تعالى خلق إنساناً مثله..."^٦، وفي موضع آخر يقول: "ثم نحن إن شاء الله تعالى ذاكرون بحول الله وقوته قليلاً من كثير من قبائحهم..."^٧. ونحن في الحديث عن الزيادة والاستطراد، لا يمكننا أن نغفل طريقة محببة عند ابن حزم أكثر من استعمالها، إنها افتراض الحجج والردود على لسان الخصم، وربما كان ظاهر هذه العملية لا يصبّ في صالح ابن حزم، لأنها تزيد من ضغط البراهين عليه، وتضعف من موقفه، لكن حقيقة الأمر، إنّ هذه العملية تمنح ابن حزم مصداقية أكبر، علاوة على تماشيها مع فلسفته العامة في المناظرة، والتي عرضناها في الفصل السابق، والمتمثلة بالوصول إلى الحق وإن كان على لسان الخصم، ويمكننا تسمية عملية افتراض الحجج على لسان المقابل (بالمناظرة الافتراضية)، ولا نعني بذلك أنّه لا

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم (مقدمة المحقق) ص ٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٨٢.

^٤ - المصدر نفسه ص ٢/١٨٨.

^٥ - المصدر نفسه ص ٤/٣٧٤.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٤٧.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٥٦.

يمكن وجودها على أرض الواقع، بل ربما أورد ابن حزم حججاً افتراضية، هي في الأساس حججٌ قالها مناظر آخر في مناظرة أخرى، أو أنه قرأها في كتاب ما، أو أنه فعلاً تخيلها؛

"أما المناظرة الافتراضية فقد برع فيها ابن حزم، من حيث أنه كان يقيم حواراً في كتاباته فيفترض التساؤل، ثم يجيب عليه أو يردّ على من تساءل من الآخرين"^١. فكثيراً ما نجد كلاماً لابن حزم من مثابه لهذه العبارة: "فإن اعترض معترض"^٢، وهذا النوع من المناظرة رغم ما أشرنا إليه، من تشكيكه عبثاً إضافياً على ابن حزم إلا أنه يعطيه تفوقاً أكبر على خصومه، ويجعله "يتتبع كل ما يمكن أن يجول في خواطرهم من ردود فعل فيعريها تماماً لهم، ثم تتبدى لديه الخواطر والأفكار والحجج الدامغة"^٣.

حتى في المواضيع التي يتحدث فيها عن الحب والمحبين فإنه ينتهج النهج نفسه؛ ففي تعريفه للحب وما يتعلق به يقول: "ولا يظن ظانّ ولا يتوهم متوهم أن كل هذا مخالف لقولي المسطر صدر الرسالة: إنّ الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي، بل هو مؤكد له، فقد علمنا أنّ النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب،... فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له،... فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع"^٤.

إنّ حديثنا السابق كان عن هيكلية المناظرة، وشكل البناء الذي اختاره لها ابن حزم، وهذا الشكل يتشابه مع الشكل الذي اختاره ابن حزم في مؤلفاته، فالتفكير المنطقي والتراكمي كان حاضراً في مناظرات ابن حزم ومؤلفاته على حد سواء، لكنّ الخلاف الرئيسي ينحصر في وجود الخصم، فهو في المناظرة بارز، بل ركن أساسي من تلك المناظرة، ومهمتنا فيما تبقى من هذا الجزء من الفصل، هي اكتشاف طبيعة تعامل ابن حزم مع خصمه أو خصومه، ابتداءً بدرجة معرفته بهم، ومروراً بمحاورتهم ومسايرتهم أحياناً، وانتهاءً بالنتيجة التي كان يصل لها معهم في الغالب.

ولنبداً - على نهج ابن حزم - بإيراد ما قاله خصومه عن طريقته في المجادلة، قال (عليش) نقلاً عن (البرزلي) "قال الباجي: وبالجملّة فإن الرجل [ابن حزم] ليس معه

^١ - رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٤٤.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٨٣.

^٣ - رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٢٥.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١/١٢٦.

قوة علم ولا تضلع في الاحتجاج ولكن إمامه بالأمور الفارغة ومبتدئ الطلبة، فإذا سئل عن مسألة يقول لمن حضره أو السائل، ما قلت أنت فيها وما ظهر لك؟ ولا يزال يستميل حتى ينطق فيها بشيء من رأيه فيجود فعله ويستحسن رأيه ويقول: قولك فيها خير من قول مالك ويزين له ذلك ويشككه في نفسه حتى يصير يرى نفسه ويتعاضم ويقع في مالك وغيره من العلماء^١. ربما نتفق مع هذا الكلام، بأن ابن حزم فتح باب الاجتهاد، حتى للعامي، لكننا لا نسلم بهذا الاستهتار المزعوم الذي وُصف به ابن حزم، لأنه ناقد حرّ، لا يسمع شيئاً فيصدقه دون أن يناقشه، ومع ذلك وفي أسوأ الأحوال يكون "تحايل ابن حزم على الطلبة في كسر الجمود على مذهب مالك من السعي المشكور"^٢.

فكيف كان تعامل ابن حزم مع خصومه وأدلتهم؟ "إن ابن حزم أول ما يبدأ بحثه في أي مسألة كلامية يقرر آراء مختلف النحل على سبيل التفصيل، حتى إذا فرغ من ذلك بدأ عمله"^٣. وللتوصل إلى مسلك ابن حزم في تفنيد أدلة الخصم، لابد أن نتناول بعضاً من الأدلة والشواهد من مناظرات ابن حزم، حتى لا نبقي في إطار النظريات، ولأنّ هذا الفصل، في الأساس، مخصص لرؤية التفاعل العملي بين ابن حزم وخصومه.

وأول هذا التفاعل تصريحه بأنه يردّ على الخصم: "هذا قولنا والردّ على من جهّل ربه وسماه بغير أسمائه"^٤. وهذا الوضوح ينطبق أيضاً على التسميات، فلا يوارب ابن حزم بالتسميات، فالمقابل أمامه هو (خصم): "إنّ خصمنا يحتج..."^٥، وربما ذكر اسمه إن كان يعرفه، أمّا إن كان خفياً، أطلق عليه ما يميزه: "من علي بن أحمد إلى الهاتف من بعد دون أن يسمى أو يعرف"^٦.

كما أنّ معرفة ابن حزم الدقيقة بخصومه منحتة ميزة إضافية في الرد عليهم، ومعرفة مداخلهم، ومكنته من تفسير أسباب أقوالهم وآرائهم: "وإنما دخل الغلط على الكندي على ما قال، لأنه..."^٧، فإن لم يكن يعرف خصمه على التحديد استخدم العموميات، "فإن كنت منهم أيها المخاطب فقد شملك ما عمهم، وإن لم تكن منهم فلست

^١ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٣١/٣. نقلاً عن فتح العلي المالك لابن عيش.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٣٤.

^٣ - منشد: ابن حزم الأندلسي وجهوده في دراسة العقائد ص ١٨٠.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣٦٩/٤.

^٥ - المصدر نفسه ص ٧٤/٣.

^٦ - المصدر نفسه ص ١١٩/٣.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣٧٥/٤.

أهلاً للسلام عليك"¹. إنّ هذه المعرفة بالخصم جعلته أكثر خبرة بمداخلهم، فكان يعتمد على نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة في جدله لمن يأخذ بهذه الأدلة، بينما كان يعتمد على العقل المجرد، إن كان من يحاورهم يهوداً أو نصارى أو فلاسفة، وكان له مع أهل الكتاب، خاصة، تعامل آخر، فقد كان يرجع إلى كتبهم المقدسة، ويستخدمها لمهاجمتهم.

إنّ الفكرة الذائعة عن ابن حزم أنّه دائماً ما يهاجم خصمه، ويسقّه رأيه ويطعن في شخصه، قد آن لها أن تتغير، لأن الرجل "يحاول قدر المستطاع سرد حجج خصمه واحدة بعد الأخرى، مورداً في كثير من الأحيان أقاويل الخصم بحذافيرها"². ولنتابع هذه المنهجية بشكلها العملي؛ فأول ذلك، أنّه ينقل أقوال الخصم حرفياً، "قال الكندي: اعلم أسعدك الله، أنّ أعلى الصناعات الإنسانية درجة..."³، فإن كان كلام الخصم سؤالاً، أورده بنصّه أيضاً، "ذكرت - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - ما حكم من قال: إنّ أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم القيامة"⁴، فإن كان الخصم يهاجم ابن حزم لقولة قالها، فإنه يعيد قولته تلك، حتى يتأكد أنّ خصمه عناها بالفعل، وأن ليس هناك سوء فهم؛ "فتأمل يا أخي، إنك ألزمتني ما لا يلزمني، وأنا لم أمر قط بالتقليد: فاضبط عني أنما قلت..."⁵، فإن كان الكلام المنقول طويلاً، اختصره، حتى يسهل فهمه للسامع؛ "اختصار هذا..."⁶، وإن كان يمكن الجمع بين مسائل الخصم للرد عليها مرة واحدة، فعل ذلك؛ "وهاتان مسألتان وإن كنتم فرقتم بينهما فهي واحدة فأقول..."⁷.

فابن حزم لم يكن "يهضم أحداً حقه، ولا يبخر علماء صحيحاً أثره"⁸. وكثيراً ما كان يساير خصمه، ويتنزل معه بالأدلة، على أمل الوصول إلى إقناعه؛ "ثم نقول لهم: أتراكم أنتم أحطتم بجميع حديث النبي صلى الله عليه وسلم حتى تعلموا أنّه شاهد لأقوال مالك، ثم نحن ننزلكم درجة: أتراكم أحطتم بجميع أقوال مالك"⁹، وهذه المسaire تأخذ أحياناً شكل سعة صدر تجاه الخصم، "ثم قال: ومثلك قد انطوى على خبث سريرة

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٩.

² - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ١٣٢.

³ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٦٣.

⁴ - المصدر نفسه ص ٣/٢١٩.

⁵ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٢.

⁶ - المصدر نفسه ص ٤/٣٦٤.

⁷ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٢.

⁸ - رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٥٦.

⁹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩٣.

وأبدى بلفظه ما يجنبه ويستره) قال علي: فنحن نقول: لعن الله الخبيث السريرة، وإنما يعلم السرائر خالقها...^١.

وقد يضيق ابن حزم الخناق على المخالف، ليلزمه الحق؛ "قلت له: فهو جسم أو غير جسم..."^٢، ففي هذا الحصر المنطقي يستطيع ابن حزم تقليل الاحتمالات، وتوجيه الأدلة ناحية رأي خصمه. وسنورد هنا مثلاً يجمع لنا قدراً من أسلوب ابن حزم في التعاطي مع الخصم، وهذا المثال هو قول ورد لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: إني لأستحي من الله عز وجل أن أخالف أبا بكر. وفي هذا القول تشجيع للتقليد الذي يحاربه ابن حزم، وقد كان رد ابن حزم على هذا الدليل من عدة أوجه:

أولاً: منع فهم الحديث كما فهمه المستدل، بل رأى فيه عكس فهمه، وهو أن عمر رضي الله عنه لم يقصد أنه يقلد أبا بكر حياءً من الله، إنما كان عمر رضي الله عنه على غير صواب في مسألة (الكلالة)، فاستحى من الله أن يجزم برأيه، ويخالف الحق، والذي عليه أبو بكر - رضي الله عنه - أصلاً. ثانياً: طعن في سند الحديث. ثالثاً: عارض الدعوى بدعوى أصح، وهي خلاف عمر لأبي بكر - رضي الله عنهما - في مسائل عدة. رابعاً: تنزل معهم في الاستدلال؛ وهو التسليم للخصم بصحة عدم جواز مخالفة أبي بكر، لكن هذا لا يعني بالضرورة عدم جواز مخالفة مالك وغيره. خامساً: ألزمهم بالتناقض، حيث جاءهم بأمثلة من آرائهم، تدل على مخالفتهم لقولهم في وجوب التقليد.^٣

على أن خصام ابن حزم مع الآخرين لم يكن في غالبه خصاماً شخصياً، أو بدوافع ذاتية، بل إن رغبة ابن حزم في إقناع خصمه كانت تنعطف بالمناظر إلى النصح والإرشاد، وأحياناً إلى التعليم، ومعلوم أن الخصم - عادة - لا يخضع ويسلم، إلا إذا أحسن بموضوعية من يقابله، فلذلك، عمد ابن حزم إلى طمأنة الخصم في بعض الأحيان؛ "وهذا القول [قول الخصم] صواب إن شاء الله..."^٤، وأحياناً يصحح له معلومة مغلوطة؛ "وأما قولك إن الميت إذا دُلي في قبره أتاه ملك اسمه رومان إلى آخر الكلام، فخرافة موضوعة لم يأت قط من طريق لينة فكيف قوية، وإنما صحَّ أنه يأتيه ملكان أسودان..."^٥.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٢.

^٣ - انظر: الظاهري: نواذر ابن حزم ص ٢٩-٢/٣٢.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٦٦.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٢.

ومن نماذج النصح الذي يقدمه ابن حزم، لمقابله حين يرى الخير فيه: "فأعلم - عافانا الله وإياك - أنّ البحث عن مثل هذا أحدثه الخوارج"^١، بل يبدأ أحيانا المناظرة ناصحا: "أما بعد، فإنني أوصيك بتقوى الله فإن العاقبة للتقوى"^٢، وزيادة في استمالة الخصم، قد يمدحه ويثني عليه، وهذا قليل نادر. والأندر من ذلك أن يمتنع ابن حزم عن المناظرة ابتداءً، وهذا لا يكون إلا إذا أحسّ ابن حزم باستحالة المواجهة، كأن يكون موجوداً بين أنصار خصمه، وفي ذلك يروي ابن حزم قصة، فيقول: "رأيتُه [يعني محمد بن عيسى الصوفي الألبيري] مرة وسمعتُه يقول: إنّ النبي كان لا يلزمه زكاة مال لأنه اختار أن يكون نبياً عبداً، والعبد لا زكاة عليه، ولذلك لم يورث ولا ورث، فأمسكت عن معارضته، لأن العامة كانت بحضرته فخشيت لغطهم وتشيعهم بالباطل ولم يكن معي أحد إلا يحيى بن عبد الكبير بن واقد كنت أتيت أنا وهو معي متكرين لنسمع كلامه"^٣.

بعد هذا العرض المدعّم بشواهد من مناظرات ابن حزم، نستطيع القول إنّ عموم مناظرات ابن حزم كانت تقوم على منهجية واضحة، وتمتاز بالسهولة فلا تعقيد فيها، بل إنّها تجعل الموضوع الصعب الشائك موضوعاً هيناً سهل الفهم. كما أنّ عموم المناظرات كانت موضوعية إلى حدود بعيدة، لما فيها من عرض آراء الخصوم بحياد تام، وتلخيصها والرد عليها مجتمعة أو متفرقة، وعلاوة على ذلك كله، كان ابن حزم كثير النصح لخصومه، راغباً في إثباتهم للحق، وبالمجمل، كان الأداء الشكلاّني لابن حزم في المناظرة منضبطاً غاية الانضباط، ومتوافقاً مع معايير المناظرة.

٢ - حدة لسان ابن حزم في مناظراته

لا يمكننا أن ندرس منهجية ابن حزم وممارسته العملية للمناظرة دون أن نتعرف إلى حدة لسانه وسلطته، لأنها تشكل ظاهرة بحدّ ذاتها، وسيكون عرض ما يخالفها من منطقية وموضوعية وصدق عند ابن حزم، فقط، دون الوقوف على هذه الظاهرة، انحيازاً واضحاً وإخفاء مقصوداً للحقيقة. في وقتنا عند ظاهرة الحدة وسلطة اللسان عند ابن حزم، سنعرض ما يؤكد هذه الظاهرة، ثم سنحاول تفسيرها، وتبريرها إن كان لها فعلاً ما يبررها، كما سننهي بأثر هذه الحدة على المناظرة، خصوصاً على موضوعيّتها.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٧.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٩.

^٣ - ابن حزم: الفصل ص ٢/٣٢٤.

يقول الذهبي عن ابن حزم: "وبسط لسانه وقلمه ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب بل فحج العبارة وسبّ وجدع"^١، ويقول أيضاً، في موضع آخر: "... وجرت له أمور وقام عليه الفقهاء لطول لسانه واستخفافه بالكبار ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأفج عبارة وأفظ محاورة"^٢. وعدّه علماء آخرون شراً كله، ولم ينصفوه، فقال عنه (السكبي): "وهذا ابن حزم رجل جريء بلسانه، متسرع إلى النقل بمجرد ظنه، هاجم على أئمة الإسلام بألفاظه، وكتابه هذا (الملل والنحل) من شر الكتب"^٣.

على ما في هذا الحكم من قسوة وبعد عن الإنصاف، فإنّه يشير إلى طول لسان ابن حزم، ولعل (أبا المحاسن الأتابكي) كان أكثر إنصافاً حيث يقول عنه: "وقد تكلم فيه كل أحد ما خلا أهل الحديث... إلا أنّه كان صاحب لسان خبيث، ويقع في حق العلماء الأعلام حتى صار مثلاً، فيقال: (نعوذ بالله من سيف الحجاج ولسان ابن حزم)"^٤. ويندرج تحت طول اللسان وحدّته، قسوة العبارة وجفوة المقالة، وعدم مراعاة الخصم في مشاعره. كما أضاف (ابن القيم الجوزية) مطاعن أخرى في ابن حزم؛ "وأما أبو محمد فإنه على قدر يُبسه وقسوته في التمسك بالظاهر وإغائه للمعاني والمناسبات والحكم والعلل الشرعية انماح في باب العشق والنظر وسماع الملاهي المحرمة"^٥. وما يدلك على طغيان هذه الحدة على مناظرات ابن حزم ومؤلفاته هو الشك في نسبة كتاب (الناسخ والمنسوخ) إليه، لأنك تجد مؤلفه لطيفاً متسع الصدر لأراء الخصوم، فلو كان ابن حزم، فعلاً، صاحب هذا الكتاب؛ "للعنهم بكل ما في القواميس من شتيمة"^٦.

وهنا سنورد نماذج من حدة لسانه وبشاعة أقواله في حق خصومه، تمهيداً لتفسير هذه الظاهرة. قال أبو محمد: المحتج لهذا؟ إما أن يكون بمنزلة الحمير في الجهل، وإما كان رقيق الدين لا يستحي ولا يتقي الله عز وجل"^٧. وفي ردّ ابن حزم على من لا يرون أنّ الله فاضل بين عباده بالعقل، يقول لهم، بأنّ هذا القول يلزمه أنّ العلماء والصالحين المُميزين بالعقل لا يختلفون عن "المخنث البغاء الزفان [الرقاص] ولهذه الزانية الخليعة المتبرجة الساحقة، ولهذا الشيخ الذي يلعب مع الصبيان بالكعاب في الخانات ويعجفهم إذ

^١ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٨٧/١٨٨.

^٢ - الذهبي: تذكرة الحفاظ ص ٣/١١٥٤.

^٣ - السبكي: طبقات الشافعية ص ٩٠.

^٤ - الأتابكي: النجوم الزاهرة ص ٧٦.

^٥ - ابن الجوزية: روضة المحبين ص ٩٥.

^٦ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٣/٢٣.

^٧ - ابن حزم: الأحكام ص ٦/٨٣٩.

قدر^١. وقد يطلق على خصمه أوصافاً ونعوتاً سيئة؛ "يا أيها الكندي المنكشف المبهوت"^٢. وقد يتفنن في السباب؛ "وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الإعراض كان إلا سكران الخمر، وسكر عجب الصغير إذا كبر، والخسيس إذا أشر، والذليل الجائع إذا عزّ وشبع والسفلي إذا أمر وشط"^٣. وربما أستعمل أسماء الحيوانات لوصف خصومه: "واغوثة من عظيم هذا الحمق! أفيكون في البقر والحمير أو الكلاب أضل من قوم هذا مقدار عقولهم^٤. وكان كثيراً ما يلعن خصمه: "قال هذا الكلب لعنه الله"^٥.

وقبل محاولة تفسير هذه الظاهرة، سنستمع إلى بعض دارسي ابن حزم، وهم يرون في حدة ابن حزم فضيلة زائدة؛ (فالطاهر مكي) يقول: "الحدة التي اشتهر بها ابن حزم، والتي تصل إلى حد التسفيه والتكفير في أحيان كثيرة، لا أراها مما يُعاب عليه جملة، فهي تأتي غالباً في موضعها وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع لتوقظ نائماً وتنبيه غافلاً"^٦. ويقول (ابن خليل): "إن أكثر من أثنى على أبي محمد رحمه الله وأخذه في شيء أنه أطلق لسانه وقلمه... وأنا أقول: إنه ليس خطأ، بل هو قربة إلى الله تعالى، وجهاد فيه، وزين للتأليف... فهو يرى في مذهبه أن تلك المقولات منه مجاهدة شرعاً، ويحتج على ذلك بقوله عليه السلام: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه... فمن لم يقدر على ذلك ففرضه على رأي أبي محمد أن يجاهدهم بلسانه، كما فعل هو"^٧.

فإذا ما جئنا إلى تفسير هذا الظاهرة، فإننا نعتقد أن أسبابها هي الأسباب والظروف نفسها التي ساهمت بجعل ابن حزم رجلاً جديلاً، والتي عرضناها في الفصل السابق، ومن أهمها؛ طبيعة المجتمع، والقلق والفتن في ذلك العصر. وقد لاقت تلك الظروف استجابة غير متوقعة ولا مألوفة من ابن حزم فجعلته أكثر حدة وصرامة. فالعصر الذي عاشه ابن حزم هو عصر انهيار الخلافة، وما تبعه من انهيار القيم "فتسوّر الأردال، وتصدر المتعالم للتعليم، فتفشى الجهل والتعصب للأفكار الفاسدة والآراء التي

^١ - ابن حزم: الفصل ص ١/٥٠١.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٧٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤٤-٣/٤٥.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٥٧.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٦٥.

^٦ - حسان: بن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ٧١ نقلاً عن (الطاهر مكي).

^٧ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٣١٥-٣١٨، نقلاً عن المورد الأحلي لأحد تلاميذ الذهبي من أعيان القرن الثامن.

لا سند لها، فانزوى العلماء حفاظاً على هيبة العلم وعلى مكانتهم، وصمت البعض منهم، فلم يؤيد هذا أو ذاك، فنشأ جيل لم يتأدب بآداب العلم وطريقة تلقيه، ولم يتعلم آداب السؤال أو الجواب، ولم يتخلق بآداب المناظرة والنقد، وقد عانى ابن حزم الكثير من هذه الأصناف، مما أثر على ردوده التي اتسمت بالحدة والجرأة والاستخفاف بآراء معارضييه الذين كشف عن جهل معظمهم"^١.

فابن حزم لم يبدأ السباب والشتم، ولم تكن حدته إلا ردة فعل طبيعية على من يناظره، خاصة أولئك الجهّال، أدعياء العلم. وقد وصف هؤلاء المناظرين بالجهل، حتى وإن ذهبوا إلى مجالس العلم أو إلى الشيخ المعلم الذي "ربما ألمّ به بعضهم [الخصوم] الإمام من لا يدري ما يطلب، يخرجون من عنده كما دخلوا، لم يعتدوا قط عنه كلمة، ولا اهتبلوا بما يروي بلفظه، إنّما يقعدون عنده قعود راحة، إذا لم يكن عليهم شغل"^٢. فلا عجب إذا أن يدعو ابن حزم هؤلاء الخصوم إلى التعلم من جديد: "ومن كانت هذه منزلته من الفهم ما كان حقه أن يعود إلا إلى كتب الهجاء"^٣. فبأي شكل يمكن أن يُجمع بين كثير من مناظري ابن حزم، الموصوفين بالجهل، وبين ابن حزم الذي "يرى أنّه لا يجوز أن يستدل إلا باليقين المطلق، ولم يجوّز الاستدلال بالظن والراجح كما عليه أكثر أهل العلم، وقد تأسس على هذا أنّه لم يجعل مساحة للخطأ في الرأي، إذ إنّ اليقين لا يُنقض، فكيف لرجل يعتقد هذا الاعتقاد أن يقول لمخالفيه: أنا على صواب يحتمل الخطأ، بينما لا احتمال عنده للخطأ أصلاً"^٤.

كما أنّ "قلة اعتداده [ابن حزم] بآراء المخالفين هي مسألة منهج يحتذيه وليس جموداً أو تعصباً لآرائه"^٥، وهذا المنهج ناتج عن اعتقاده أنّ دين الله واحد وأنّ حكم الله في أي قضية لا يتعدد أو يتنوع^٦.

فإذا ما عدنا إلى الأسباب غير المباشرة، وخاصة المتعلقة بعلم النفس، فإننا سنوردها دون الركون إلى جميعها. فالنشأة الناعمة والرعاية المبالغ فيها لابن حزم في صغره "قد طبعت مزاجه بطابع الحدة المعروف به، وعنف الرد وسرعة الإنفعال والهيجان وهي ما يسمى بالمزاج العصبي... فالميل للنقد والسخرية والانتقام الفكري،

^١ - عصمت دندش: ابن حزم المنهج والمعرفة ص ١٧٣-١٧٤.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٨٦.

^٤ - عبد الكريم: الإمام ابن حزم ومنهجه التجديدي ص ٦٠-٦١.

^٥ - المصدر نفسه ص ٦١.

^٦ - انظر: قلعه جي: ابن حزم في المحلى ص ٧-٨.

والتحدي والتلذذ من نقد الآخرين وكشف أخطائهم وإظهارهم بمظهر السخف والتشهير بهفواتهم، كلها حالات ملازمة للأمزجة الانفعالية، أو أعراض لغليان نفسي دفين، يفصح عن نفسه من خلال ذلك"^١.

رغم المبالغة الواضحة في النص السابق، والقبح الكبير في رَسَم دخيلة ابن حزم، فإننا ندرك أنّ جزءاً من هذه الأعراض يعود إلى مرحلة الطفولة، لكنّ الجزء الأكبر والمحرك الأساسي كان هو مشروع ابن حزم الظاهري، وأهدافه الدينية والسياسية.

أما المرض العضوي، فكان له دور بارز في حدة ابن حزم، حتى إنّ ابن حزم نفسه كان "يدرك أنّ للاضطراب النفسي أسباباً أخرى لا صلة لها بالتكليف النفسي ولا بنوع التفاعل الاجتماعي، بل هي ناشئة عن اضطرابات فيزيولوجية عضوية"^٢، وقد تحدث ابن حزم فعلاً عن مرضه بالطحال، وعن أمراض أخرى؛ كخفقان القلب والقلق النفسي.

كما أنّ تناقض الخصم وكذبه، سيجعل المناظرة الصحيحة معه أمراً مستحيلاً، وقد كان أكثر خصوم ابن حزم من هؤلاء المتعصبين، فلا يُعقل أن يُلقى اللوم كله على ابن حزم، ويُترك الخصم بريء الساحة. فإذا ما جئنا للخصوم الذين كان ابن حزم أشد قسوة عليهم، وجدناهم أهل الكتاب، واليهود على وجه التحديد؛ "فطبيعة عقائد أهل الكتاب، التي تتناقض مع أبسط أحكام العقل، وتتعارض مع المنطق السليم مما تثير دارسها، خاصة إذا كان رجلاً كابن حزم يتميز بالصراحة المطلقة، ويضيق بمجافاة العقل"^٣.

إنّ خروج ابن حزم عن طوره في مناظرته مع هؤلاء، سيكون مبرراً، إذا أدركنا حجم الهوة بين المتناظرين، سواء في إتباع البرهان، أو حتى في الأخلاق العامة، كالصدق مثلاً، الذي يفتقرون إليه - كما يرى ابن حزم -؛ "والقوم [يعني اليهود] بالجملة أكذب البرية أسلافهم وأخلافهم، وعلى كثرة ما شاهدنا منهم ما رأيت فيهم قط متحرياً للصدق إلا رجلين فقط!"^٤. فلا عجب، بعد أن خبر ابن حزم هؤلاء اليهود، قديماً من تاريخهم، وحديثاً من معاشرتهم - لا عجب أن يقسو عليهم غاية القسوة فيقول - مثلاً :-

^١ - يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي ص ٤٢.

^٢ - مهرداد: أهمية إسهام ابن حزم في تأسيس علم النفس ص ١٣٦.

^٣ - السيوطي: الجدل الديني ص ١٤٨.

^٤ - ابن حزم: الفصل ص ١/٥٦.

"وليتجنب هؤلاء الأنجاس الأنتان الأقدار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والقلّة والمهانة والسخط والخساسة والوسخ ما لم يحق بأمة من الأمم. وليعلم أنّ هذا الكسى التي كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب، وأسرع تعلقاً من الجذام".^١

وعلاوة على ما ذكرنا، من جفاء هؤلاء الخصوم للعقل وللخلق، فإنهم لم يتوانوا عن الهجوم على الإسلام وعلى ابن حزم، وهذا الهجوم سيثير ابن حزم بلا ريب؛ "ولو أنّ هذا الزنديق المائق كان له أقلّ تحصيل، لما أقدم على المجاهرة بهذا الدين الخسيس طرفة عين".^٢ ويقول في موضع آخر، رداً على هجومهم: "وأما تشنيعه بما ذكر فمنزلة نهيق ناهق وعواء عاو".^٣

وفي تقييم هذه الحدة، وهل كانت تخرج بابن حزم عن الموضوعية وتقوده إلى التحيز؟ وهل كانت هذه الحدة غطاءً لضعف ما، يعانيه ابن حزم؟ لقد استغلّ بعض مخالفني أبي محمد هذه الظاهرة، ليفتروا عليه الكذب، وزعموا أنّه يسخف بالمناظرة إلى حدّ التضاحك والاستهتار بالخصوم؛ "فإذا طالبهم [يعني الخصوم] بالدليل كاعوا فيتضاحك مع أصحابه منهم، وعضد الرياسة بما كان عنده من أدب وشبه".^٤

ويكفي للرد على هذا الإدعاء، أنّ ابن حزم من أكثر الذين عانوا وظلموا من هؤلاء الحكام، أما التضاحك فما أورد هذا الخبر إلا (ابن العربي) وهو معروف ببغضه لابن حزم. كما أنّه "وبالرغم من اتصاف ابن حزم بالعنف والشدة في مجادلاته كان ينحو المنهج العلمي الموضوعي في مجادلاته، فكان يستمع إلى آراء مناظريه وحججهم حتى ينتهوا ثم يبدأ بتفنيدها ونقدها وبيان بطلانها واحدة تلو الأخرى".^٥

فالربط إذاً، بين الحدة والتحيز لا وجه له، لأنّ "الحدة مهما بلغت وحطت من صاحبها فليس بالضرورة علامة على التحيز".^٦ كما أنّ الذي يدرك قوة ابن حزم العلمية، لا يمكنه الظن أنّ هذا العنف يخفي ضعفاً، أو وهناً يحاول الرجل ستره من خلال هذا العنف، بل الأمر على العكس، فقد كان العنف (جميلاً)، وذلك حين ترى الرجل وقد أخذ المسائل يناقشها، فتري "هذه الحركات العقلية واللفقات البارة والوثبات الرائعة

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٥٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٥.

^٤ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٨/١٨٩.

^٥ - اليوسف: ابن حزم الأندلسي حياته - فلسفته ص ٩٧.

^٦ - عبد الكريم: الإمام ابن حزم ومنهجه التجديدي ص ٥٩.

والمداورات المفتنة، وإذ يراه يتناول فيها الخصم تناولاً وهو مزج من العنف والبراعة جميعاً^١.

٣- الموضوعية وروح البحث والصدق في مناظرات ابن حزم

تعد الموضوعية وروح البحث والشجاعة مكونات محورية في شخصية العالم الحق، فعالم لا يكون هاجسه العلم والحقيقة، لن يكون باحثاً حقيقياً، وبالتالي لن يحرص على الحقيقة، والتي يجب أن تظهر بكليتها دون أي خفاء يجافي الموضوعية، وهذا الظهور سيحتاج - بكل تأكيد - شجاعة لمواجهة المخالفين، وشجاعة أكبر للثبات على ما ظهر من حق.

سيشكل هذا الجزء من الفصل الحالي، منعطفاً هاماً في تقييم مناظرات ابن حزم، وقد اعتمدنا في هذا التقييم مقاييس، من البداهة أن تتوفر في تكوين أي باحث أو عالم أو مناظر، ومهمتنا - كذلك - رصد روح البحث والموضوعية والشجاعة عند صاحبنا ابن حزم.

من المعروف أن ابن حزم لم يكن مناظراً عادياً، وهو باحث غير عادي، إنه متعلم فريد من نوعه، حتى إن المعرفة كانت هاجسه في صغره، يقول ابن حزم متحدثاً عن مرحلة صغره: "فلم أزل باحثاً عن أخبارهن [يعني النساء اللواتي تربى في حجورهن] كاشفاً من أسرارهن، وكنّ قد أنسن مني بكتمان فكنّ يطلعنني على غوامض أمورهن"^٢.

وعندما كبر ابن حزم كبرت هذه النزعة، وتضحّم حبه للعلم وللحقيقة، فكان طالباً نهماً للعلم، لا يكل ولا يفتر، ولم يكن يرضى أن تغيب عنه أي جزئية من هذا العلم، فكان دائم البحث والتفتيش. ففي مسألة - مثلاً - من دقائق مسائل الزكاة، وهي مقدار دينار الذهب بمكة، ومقدار الدرهم والرطل فيها، يقول ابن حزم يصف بحثه عن حقيقة الأمر: "وبحثت أنا غاية البحث عند كل من وثقت بتمييزه..."^٣. وأحياناً يقطع السنوات يفتش؛ "وقد أطلت التفتيش على هذا منذ سنين..."^٤. وأحياناً يدمن هذا البحث؛ "إني قد

^١ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٧٤.

^٢ - ابن حزم: طوق الحمامة ص ٢٧٢.

^٣ - ابن حزم: المحلى ص ٥/٢٧٤.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٦.

أدمنت البحث عما سألتكم عنه مدى دهر طويل، وفتشت عنه القرآن والحديث الصحيح، فلاح لي بعد طلب كثير، وتحصل لي بعد طلب شديد...^١ ولم يكن يتحرّج أو يخجل من الجهر بمثل هذا الاعتراف لسائله وخصومه، لأنه كان يعلم إنّما العلم بالبحث والسؤال. كما أنّه كان مخلصاً في بحثه لله تعالى؛ "ولئن كانت بعض مناظرات ابن حزم (خصوصاً مع أعداء الإسلام من المشركين والملحدين) لم تكن تخلو من عنف وتطاول، إلا أننا نشعر شعوراً واضحاً بأنّ ابن حزم كان مخلصاً في جدله، مؤمناً بما يقول"^٢. وإنّ ابن حزم ليجهر بهذا الإخلاص أحياناً: "لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسميها، والمراد بها ربنا جلّ وجهه"^٣.

ومن غير الممكن، فصل نزعة البحث العلمي عن الاستقلال الفكري والتفكير الحر عند الباحث، فمهما كان هذا الباحث جاداً في طلب الحقيقة، فلن تتراءى له إلا كما يتخيلها، إذا كان أسير منهج أو فكرة ما، أما ابن حزم فكان "يمثل الشخصية المستقلة، والعقل الحرّ القوي، والأفق الواسع الرحيب، وبهذا الاستقلال في الرأي، والبعد قدر ما يمكن أن يتاح لرجل مثله - عن تلك الرواسب التي أرسبتها الأجيال المختلفة"^٤. لقد استطاع ابن حزم أن يتحرر من سلطان المجتمع، وتجاوز الهالة التي أحيط بها المتقدمون، فكان تأثره بالبيئة حوله في أضيق الحدود. وهذا الطرح، يضعنا مواجهة أمام مذهبيّة ابن حزم، وهل أثرت في هذه الاستقلالية، التي تحدثنا عنها؟

بالطبع لن ننكر ذلك التأثير، على إطلاقه، ولكننا يجب أن نميز بين الظاهرية والمذهبية - كما أشرنا سابقاً - فالظاهرية هي مبادئ عامة، وليست نصوصاً أو آراءً يمكن أن تُحفظ وتُلقن ثم تُتبع؛ "وحتى كونه استفاد من مذهب داود فإن ذلك لا يمنع كونه مجتهداً مطلقاً"^٥. بل إنّ ابن حزم يعلن براءته من التمذهب الخالص، حتى لداود بن علي؛ "ولا يجهل علينا جاهل فيظن إنّنا متبعون مذهب الإمام أبي سليمان داود ابن علي، إنّما أبو سليمان من شيوخه ومعلم من معلمينا، إن أصاب الحق فنحن معه أتباعاً للحق، وإن أخطأ اعتذرنا له، واتبعنا الحق"^٦.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٥٢.

^٢ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ١٥٠.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٦-١٨٧/٢.

^٤ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٧.

^٥ - حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ٧٠.

^٦ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٣١٨. نقلاً عن المورد الأجل لأحد تلاميذ الذهبي.

وهذه المخالفة لداود قد تمتد إلى مواضع النظر خارج نطاق العلم الشرعي، مثل الاختلاف في ماهية الحب؛ فالفقيهان متفقان بالتأليف في موضوع الحب والعشق؛ فقد ألف داود كتاب (الزهرة) وألف ابن حزم (طوق الحمامة)، ومع هذا الاشتراك فإن ابن حزم يجهر بمخالفة داود، يقول: "وقد اختلف الناس في ماهيته [الحب] وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكر مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها"^١.

أما أدوات البحث العلمي عند ابن حزم، فكثيرة جداً، وكلها تخضع لمنهج صارم، لا يقبل إلا اليقين المحض، ولعل ما سنورده الآن، يظهر لنا بعض هذه الأدوات؛ "قال أبو محمد: وقد شاهدنا الناس وبلغنا أخبار أهل البلاد البعيدة وكثر بحثنا عما غاب منها، ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة..."^٢. فالمشاهدة والتلقي والبحث التجريبي، والاعتماد على أخبار الآخرين كلها أدوات ابن حزم البحثية، فضلاً عن العقل الذي هو المحرك الأساسي في هذه العملية.

أما أهم صور هذه النزعة البحثية فهي؛ التسليم للعقل ونتائجه، ورفض الإنساق دون دليل وبرهان، وتجلي هذا - مثلاً - في نبذ الخرافات؛ "وهكذا القول بأنها على أفنية القبور [يعني روح المتوفى] وأنها ترد كل اثنين وخميس، فكل هذه خرافات لا يحل القول بها"^٣. فقد كان ابن حزم يجلّ العقل ويحترم نتائجه؛ فقد "كان يتمتع بعقلية واقعية تحترم الحقيقة، وتزدري الخرافة، وتجزع من الإسراف في الخيال فنحن نجده يعتقد بأوليات الحسّ والعقل، ويرفض شطحات الصوفية"^٤.

كما أنّ هذه روح الباحث عند ابن حزم لن تتوقف عند ظواهر الأمور، دون الولوج إلى الحقائق والدواخل، فالكندي^٥ - مثلاً - قد اشترك مع ابن حزم في بعض

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٩٣-٩٤/١.

^٢ - ابن حزم: الفصل ص ١/١٧٤.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢١.

^٤ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٩٦.

^٥ - هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح، فيلسوف عربي، وأحد أبناء ملوك كندة. اشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، أصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة. ورسالته (كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى) هي التي ردّ عليها ابن حزم. توفي نحو (٢٦٠هـ). انظر: الزركلي: الأعلام ص ٨/١٩٥.

المواقف من مسائل معينة، ومع ذلك لم يُخدع ابن حزم ويُسلم له؛ "إنّ الكندي وإن ناظر هؤلاء المبطلين، فقله ظنين غير مأمون لنقضه على نفسه التوحيد جهاراً"^١.

لقد خلقت هذه الروح، وتلك النزعة البحثية وحبّ المعرفة عند ابن حزم، انقياداً مطلقاً للحق؛ "وأنا أقول: لأن يضرب عنقي أو أصلب أو يرمى بي وأهلي وولدي أحب إلي من أن أقطع الطريق أو أقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وأنا أعلم أنّ ذلك حرام، وهذا أحب إلي من أن أستحل الاحتجاج بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لا اعتقده صحيحاً، أو أن أردّ حديثاً صحيحاً عنه عليه السلام"^٢. ولقد علّمت روحه الباحثة، أنّ هذا الحق لا يقاس بكثرة الأتباع؛ "الحق حق صدّقه الناس أم كذبوه، والباطل باطل صدّقه الناس أم كذبوه"^٣.

آن لنا أن نتكلم عن موضوعية ابن حزم، فهل كان صاحبنا موضوعياً، منصفاً، صادقاً، أميناً؟ إنّ الأمر الأول، في الحكم على موضوعية ابن حزم، هو التأكد أنّه يستخدم معايير صحيحة للنظر إلى الأشياء، وبما أننا متأكدون من تأصّل روح البحث عنده، ورغبته المطلقة في الحق، فقد بقي أن نرى كيف تعامل ابن حزم مع خصمه؟ وهل أنصفه؟ أم جار عليه؟

في هذا النص - مثلاً - يوجّه ابن حزم كلامه لخصمه، و يطالبه بالموضوعية: "قبل كل شيء أريد أن تنتظر في كلامي بعين سليمة من الإعراض ومن الاستحسان وبنفس بريئة من النفار والسكون معاً"^٤. إنّ هذه الدعوة إلى الموضوعية، هي دعوة ذاتية أيضاً، فلن يستطيع ابن حزم أن يجهر بها إن كان يخالفها، فهو فعلاً يتقيد "في مجادلاته بموازين أو مقاييس عقلية لا يحاول الخروج عنها وبجذب خصمه في الجدل إليها"^٥.

وحتى لا يبقى كلامنا إدعاءات وحسب، سنورد مقولة ابن حزم نفسه في الدّ خصومه (الباجي) حيث قال عنه: "لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي"^٦. كما تحتم الموضوعية على الباحث أن يكون صادقاً، شجاعاً يعترف بقصوره، ولا يدعي الكمال مطلقاً، فلا يتردد بأن ينسب الجهل إلى نفسه فيما لا يحسنه من العلوم؛ "وأما العدد والهندسة فلم يُقسم لنا في هذا العلم نفاذ، ولا تحقّقنا به،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٨٧.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٧.

^٣ - ابن حزم: الفصل ص ١/١٠٦.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٩٩-١٩٨.

^٥ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٣١.

^٦ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/٨٧. نقلاً عن الذخيرة لابن بسام.

فلسنا نتق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر"^١. فإذا نسي شيئاً لم يخل من ذلك؛ "فأذكر هذا الحديث ولا يحضرني سنده"^٢، بل أنه يصرح بقصوره البشري، دون خوف أن يُعاب أو يُقل من شأنه: "وربما فاتنا من لم نذكر، إلا أنهم بلا شك يسير... ونحن بشر والكمال من الناس للنبيين عليهم السلام، ولمن وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالكمال"^٣.

كما أن آفة الغرور العلمي، واعتقاد الكمال لم تصب ابن حزم، ولم تصبه أيضاً، آفة أخرى لا تقل ضرراً عنها، وهي التناقض، واضطراب الأقوال وتعددتها، بل أن القارئ أو السامع لابن حزم يحس أن كل كلمة من كلماته مدروسة ومحسوبة، ولا تخالف عنده بين حكم وآخر، بل أن ابن حزم سرعان ما يبدد كل ما من شأنه أن يُظن تناقضاً. ومع أن البعض رأى أن لابن حزم مواطن تناقض فيها، معتردين له بغزارة إنتاجه، لكن (ابن تميم الظاهري) يقول: "طوال خمس عشرة سنة من العمل في المحلى وبقية كتب ابن حزم لم أجد له قاعدة متناقضة أصلاً، وإنما يوجد له رجوع عن أقوال قد قالها سابقاً، ووجد النص الذي لم يجده سابقاً بخلاف ما قال، فغير أقواله"^٤.

ولكن، ما بال ابن حزم قد عُرف بالجمود واليبوس؟ وهل هذا عائد إلى رفضه لآراء من حوله؟ ربما أجبتنا عن مثل هذا السؤال فيما سبق، ورأينا أن يقين ابن حزم المطلق بأدلتها جعله لا يغير رأيه أو موقفه. ونحن نقول ما الضير في ذلك؟! إن كان منهج المناظرة سليماً، وليس فيه إقصاء للمقابل. وهنا سنحاول أن نتعرف على طريقة ابن حزم في التعامل مع خصمه وأدلتها، ومدى حضورهما في المناظرة.

يقول ابن حزم، بعد عرضه لقضية توراتية: "وقد وقفتُ بعضهم على هذا فقال لي: كان ذلك مباحاً عندهم، فقلت له..."^٥. إنَّ هذا العرض المتناوب لوجهات النظر هو أساس الموضوعية، فلم يحرم ابن حزم خصومه من حقهم بأن يُسمع صوتهم وتعرف حجتهم، فكثيراً ما تجد حجج الخصم حاضرة بقوة في مناظرات ابن حزم الكتابية، وستجد كثيراً من العبارات المشابهة لهذه العبارة: "فكان أول ما اعترض به"^٦، وستجدها بكامل قوتها، لم يُفقد دورانها على لسان ابن حزم - مع رفضه لها - أي جزء من

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٨٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٣.

^٣ - الظاهري: نوادر ابن حزم ص ٢/٦٤.

^٤ - قلعه جي: ابن حزم في المحلى. هامش للمحقق ص ٢٨.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٥٧.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٤٢.

قوتها، بل إنك إذا استمعت إلى ابن حزم يسوق حجج خصمه تكاد أن تنصاع لها، ثم ما يلبث أن يفندھا صاحبنا، فيظهر وھنها وزيفھا.

وقد يصدق من يزعم أن إيراد حجج الخصم لن يكون له معنى حقيقي إذا قوبلت بالرفض المطلق، وھذا الرفض هو ديدن ابن حزم، ونقول إنّ هذا حق، لكنّ المناظرة تحتم اختلاف وجهات النظر ابتداءً، فإن كان ابن حزم يؤمن بوجهة نظر خصمه، فما فائدة المناظرة أصلاً؟ لكننا لن نعدم أن يتسع صدر ابن حزم لوجهة نظر خصمه، إن كان في الأمر سعة يقول - مثلاً -: "فھذا وإن كان عندي حراماً، فقد قال به كل من لا يعدل كل من بعده يوماً من أيامه، وهو ابن عباس"^١. وأحياناً، إن كان قول الخصم يوافق الحق صدّقه ابن حزم: "وأما قولك فجائز لجمع الأمة تركه ولا إثم علیھا في إغفاله، فنعم هو كذلك"^٢. وأحياناً أخرى، يعذر خصمه إن كان له ما يعذره: "ولعل الناسین رأوا لنا مسألة أخرى لم يفھموھا ولا أحسنوا تأديتھا"^٣.

فإذا ما أتينا إلى (الأمانة العلمية)، والتي هي أهم مقومات الموضوعية، وجدناها في أعلى درجاتھا عند ابن حزم، "والحقيقة أنّ أحدا من مؤرخي سيرته [ابن حزم] لم يطعن في نزاهتھ، ولم يجروء علی تكذيبه، فكان رحمھ الله لا يقطع برأي إلا بعد تمحيصه"^٤. ومن الغريب أن يتهم (بالنثيا) ابن حزم فيقول: "... كأن يحرف كلم النصوص، أو يفسرھا تفسيراً ملتوياً مقصوداً، أو يبتز نصوص من يجادلھم من أصحاب المذاهب والأديان الأخرى بترأ مشوهاً مفسداً"^٥. إنّ الغرابة تظهر حين نعلم أنّ بلنثيا من الدارسين المتابعين لابن حزم ويعرفه جيداً، بل إنّه بعد عدة سطور من هذا الاتهام الكبير يقول عنه: "كان ابن حزم رجلاً صادقاً مخلصاً قوياً ذا ديانة وحشمة وسؤدد"^٦، فأیّ دين أو حشمة أو سؤدد يقبل الكذب، إنّ موقف ابن حزم من الكذب - كما نعتقد - مبنيّ علی الديانة، فهو يراه من الكبائر، وقد أشار جُلُّ دارسيه إلى "نزاهتھ الفكرية وأمانتھ الفلسفية، بل هو يحاول علی قدر المستطاع سرد حجج خصمه واحدة بعد الأخرى مورداً في كثير من الأحيان أقاويلهم بحذافيرها"^٧. يقول ابن حزم: "ونحن نورد نص ألفاظھم،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢١٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١١٠.

^٤ - مصطفى: ابن حزم وموقفه من الفلسفة ص ٧٧.

^٥ - بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢١٥.

^٦ - المصدر نفسه ص ٢١٦.

^٧ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ١٣٢.

على ركاكتها وغطايتها، لنلا يظنوا بجهلهم أنها إن أوردت مصلحة قد نسخت حقها ولم توف مرتبتها"^١.

وقد يلاحظ أنّ بعض نصوص التوراة والإنجيل، ليس لها ما يقابلها حرفياً، من النسخ المعروفة الآن، ويُفسر سبب هذا بأنّ "النقد الذي وجهه علماء المسلمين لكتب اليهود والنصارى دفعهم إلى محاولة التصرف في هذه النصوص"^٢.

أما وقد تحدثنا عن النقل، فما بال الكتمان؟ لقد كان ابن حزم خير كاتم للسر، ويرد على من اتهمه أنّه يفشي الأسرار بقوله: "فمعاذ الله أن أفصح عنك أو عن غيرك، إلا باليقين المحض، أما إذا علمت أنّ الأخ من إخواني يكره أن أفصح عنه بمقالة يقولها، فهي مدفونة خلال الشغاف"^٣.

وهكذا رأينا روح البحث واضحة ابن حزم، ورأينا عنده موضوعية وصدقاً قلّ نظيرهما، فهل تكفي هذه المقومات لتكوين مناظر بارع مثل ابن حزم؟ إنّ الأمر سيحتاج حتماً إلى شجاعة، وجراً توازي الحمل الملقى على عاتق هذا المناظر، ليوافقه أولاً نفسه ثم عامة الناس ثم علماء عصره، وأخيراً، الحكام والأمراء. لقد كان ابن حزم "الرجل الحر الفكر، الذي يصلح أن يكون دعامة من دعائم التحرر الديني. فإذا أقبلت على الكتاب [المحلى] وجدته رجلاً قوي الشخصية إلى أبعد مدى، عظيم الاعتداد بنفسه إلى أبعد غاية، ولكنه اعتداد قوامه الفهم العميق، والعقل المحكم الوثاق، والعلم الواسع الدقيق"^٤.

إنّ الشجاعة صفة لا يمكن نكرانها في تركيبة ابن حزم، لكنّ الأمر اختلط على بعض الدارسين، فرأوا شجاعة ابن حزم وصراحته وصراحتة في الدفاع عن رأيه جهالة بسياسة العلم، لكن هذه الجهالة، في حقيقة الأمر، هي شجاعة في الحق، حيث لم تأخذه فيه لومة لائم، فكان يصكّ مناظرة صكّ الجندل، فلم يكن يحسن المجاملة أو المداينة، بل كان يجهر برأيه دون التواء أو مواربة.^٥

أوليس من الطبيعي أن لا يجمال الناس، وخاصة العلماء، بعضهم على حساب الحق؟! "يبدو أنّ هذه الأخلاق قد ضاعت أيام ابن حزم، فأصبح غريباً بين أهله، حيث

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٣.

^٢ - السيوطي: الجدل الديني ص ٢٨٤.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٨٨.

^٤ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٥.

^٥ - انظر: إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري ص ٨٧.

لم يفهمه أهل عصره"^١. ورغم أن هذه الشجاعة قد جرّت على ابن حزم صنوف المشقة والأذى ومع ذلك، كان يشعر في قرارة ذاته أن المهمة التي عليه إنجازها تستحق التضحية.

فلنصخ السمع لابن حزم ونسمعه يصدع بمبادئه: "واعلموا رحمكم الله أنني أقول إعلاناً لا أسره أن تقليد الآراء لم يكن قط في قرن الصحابة رضي الله عنهم..."^٢. بل إنّه كان يبحث من حوله على الشجاعة وعدم المبالاة بالخصوم؛ "فاعلم يا أخي - وفقنا الله وإياك - أنّ خوفك المشغبين لا يكفّ عنك غرب أذاهم، لو قدروا على مضرة، وإن كشفك الحق وصدعك به لا يقدم إليك مؤخراً عنك"^٣. إنّ في هذه العبارات تسليماً، واعتماداً كبيراً على الله تعالى، وفيها أيضاً، فهم حقيقي لطبيعة الناس، الذين لن تشفع لك مداهنتك معهم إن وجدوك أخطأت أو زللت مرة ما.

وقد وقعت النتائج الحتمية لهذه الشجاعة، فقد ثار على ابن حزم كثير من علماء عصره، وحركوا العوام ضده؛ "وهم قوم كادونا من طريق المغالبة وإثارة العامة، فأركس الله جدودهم وأضرع خدودهم وله الحمد كثيراً"^٤. لقد ثار العلماء على ابن حزم، انتقاماً لأنفسهم، وحرصوا العامة. فما بال الحكام انقلبوا عليه أيضاً؟ يشكو ابن حزم هذا فيقول: "فكتبوا [بعض علماء عصره] الكتب السخيفة إلى مثل زياد بدانية وعبد الحق بصقلية، فأضاع الله كيدهم وقلّ أيّدهم"^٥.

إنّ خبرة ابن حزم السياسية لا يمكن إنكارها، ففضلاً عن توليه الوزارة مرتين أو أكثر، فهو ابن وزير ضليع في الحكم والسياسة، فما الذي جعله لا يستوعب هؤلاء الحكام، ويكسبهم إلى صفه؟ إنّ السبب بسيط جداً، وهو أنّ هؤلاء الحكام أنفسهم موضوعون على لائحة الهجوم عند ابن حزم، لأن غالبيتهم - في رأي ابن حزم - ظلمة جائرون؛ "فبشروا من سنّ القبالات والمكوس ووجوه الظلم بأخزى الجزاء وأعظم البوار في الآخرة"^٦.

ولنصخ السمع لابن حزم مرة أخرى، لنرى شجاعة فريدة، ليس في مواجهة حاكم أو أمير أو ملك واحد من ملوك الطوائف فقط، بل في مواجهتهم أجمعين: "إنّ كل مدبّر مدينة أو حصن من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع في

^١ - الحسيني: أقمار في سماء الأندلس ص ٦٣.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٦٧.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١١٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١١٦.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٣.

الأرض بفساد؛ للذي ترونه عياناً من شنهـم الغارات على أموال المسلمين... مسـلـطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام^١. كما أنّ (العلماء الرسميين) والقضاة لم يسلموا من هجوم ابن حزم؛ "وأولئك القضاة وقد عرفناهم إنّما ولاهم الطغاة العتاة من ملوك بني العباس وبني مروان بالعنايات والتزلف إليهم، عند دروس الخير، وانتشار البلاء، وعودة الخلافة ملكاً عضوضاً"^٢.

إنها إذاً جدالات مفتوحة، لا هدنة فيها مع أحد، ولا غضٍ للطرف عن قبيح، سواء جاء من عامي أو عالم أو قاضٍ أو حاكم. إنها شجاعة فريدة، قل نظيرها عبر التاريخ. فصاحبها لم يحسن أبداً السياسة بمفهوم الخداع والتذبذب؛ "لقد طحنته السياسة لأنه بالنسبة لها كان الشخص الخطأ والنوع الخطأ... وفي أوقات الاضطراب تحتاج السياسة إلى الراقصين على الحبل أكثر مما تحتاج إلى سياسيين، هكذا احتاج العصر إلى أناس يحتفظون بتوازنهم... إنّ أنصاف المواقف وأنصاف الدرجات لا يجيدها دائماً إلا أنصاف الرجال، ولم يكن ابن حزم نصفاً"^٣.

أما الثبات والإصرار، فقد أجمع المتقدمون والمتأخرون على أنها من أخصّ خصائص ابن حزم، فلا يتزحزح أمام الكاسح من المواجهة. حتى في الجزئيات من المسائل، لم يغير ابن حزم موقفه، ما لم يبدُ له دليلٌ آخر، فمرة يدعو أحدهم إلى تأمل ومراجعة كلامه، فيردّ عليه: "نعم يا أخي قد تأملتُه جداً، وأنا ثابت عليه والحمد لله رب العالمين، وأنا أكرره فأقول..."^٤.

٤- توظيف المعارف والعواطف في مناظرات ابن حزم

لقد كان التركيز حتى الآن، في هذه الدراسة، على الجانب الشكلي للقواعدي للمناظرة، وهو - بلا شك - جانب ضروري للغاية، لكنّ أيّ مناظرة ستكون جوفاء إذا خلت من لبّها الحقيقي ومحتواها، والذي جاءت تلك القواعد والضوابط خدمة له. سنحاول أن نلاحقَ مناظرات ابن حزم، ونرى مدى توظيفه لعلومه ومعارفه الشتي في المناظرة، وهل كان يقتصر على فرع معين من هذه العلوم؟ ثم ما الفائدة التي

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٧٣/٣.

^٢ - ابن حزم: الأحكام ص ٦١٧/٤.

^٣ - عوض: متمرّدون لوجه الله ص ٢٦.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٩٥/٣.

جناها من هذا التوظيف؟ وأخيراً، هل عمل ابن حزم على مشاعر خصمه، فحاول إثارتها، أو استغل عواطف شريكه لكسب الجولات ؟

لقد تعددت المعارف الداخلة والمستثمرة في مناظرات ابن حزم، وعلى رأسها القرآن الكريم، وتفسيره، ثم كتب الحديث الشريف والمصنفات العديدة فيه، إضافة إلى كتب التاريخ والعقائد واللغة والأدب، وأسفار اليهود والنصارى، إضافة إلى استفادته من الفلسفة اليونانية والهندية.

وهنا نورد حادثة نقلها (الذهبي) قد نستأنس بها، ونفسّر بها عكوف ابن حزم على العلم، تحضيراً للمناظرة، وتجهيزاً للخصوم، يقول الذهبي: "حدثني عمر بن واجب قال: بينما نحن عند أبي [يعني أبو عمر] ببلنسية وهو يدرس المذهب، إذا بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جوب فيها فأعترض في ذلك، فقال له بعض الحُضار: (هذا العلم ليس من منتحلاتك) فقام وقعد، ودخل منزله فعكف، ووكف وابل فما كف، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة"^١.

لقد كان العلم، إذًا، المفتاح والحلقة الأهم في المناظرة، عند ابن حزم، فبعد الانضباط بالشكل الخارجي للمناظرة، لا بد من علم واسع وخبرة كبيرة، وقبل هذا وذاك، لا بد من ذكاء وبديهة وحضور ذهن؛ "وقد أجمع كل مؤرخي سيرة ابن حزم على أنّه كان يتمتع بذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، كما اعترفوا له بسعة المعرفة وحدّة الذكاء..."^٢، فقد كان لمّا، لحوماً في طلب المعرفة، لا يقتنع بما يلوح حوله حتى يسبر غوره ويتقصاه.

أما حافظته القوية، فقد أعانتة عوناً كبيراً، فقد كان علمه مخزوناً في دماغه، يستدعيه متى شاء، بل وصل به الأمر أن يسند الأحاديث وغيرها اعتماداً على حفظه، وقد لاحظ هذا الأمر أحد دارسي ابن حزم: "وقد عرفنا ابن حزم متوقد الذكاء، قوي الحافظة، ومما يؤيد هذا الذي ذهب إليه، ما جاء في المحلى: (وأما الشفعة لمن اثبها فما يحضرنا الآن ذكر إسنادها إلا أنّه جملة لا خير فيه) وقوله في المحلى: (ولا يحضرنا

^١ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٨/١٩١.

^٢ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي الظاهري ص ٧٨-٧٩.

الآن ذكر من قال هم جميعاً أهل المدينة، إلا أنه قول قد قيل)... فهذا يدل على أنه كان يملئ قسماً كبيراً من المحلى عن ظهر قلب، ولو كان ينقل النصوص من مراجعها التي تحت يده لما قال: (لم يحضرني الآن) ولقال: (لم أعثر عليه الآن).^١

أما حضور ذهنه، وصعوبة خداعه، فإننا سندلل عليه بحكاية، أوردها ابن حزم نفسه، يقول فيها: "وقد فضحت أنا حيلة أبي محمد المعروف بالمرق في الكلام المسموع بحضرته ولا يرى المتكلم، وسمت بعض أصحابه أن يسمعي ذلك في مكان آخر بحيث الفضاء دون بنیان فامتنع من ذلك فظهرت حيلته، وإنما هي قصبة مثقوبة توضع وراء الحائط على شق خفي ويتكلم الذي طرف القصبة على فيه، على حين غفلة ممن في المسجد كلمات يسيرة الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك فلا يشك من في البيت مع المرق الملعون في أن الكلام اندفع بحضرته، وكان المتكلم في ذلك محمد بن عبد الله الكاتب صاحبه".^٢

فقد وظف ابن حزم علمه في المناظرات، وفي المناظرات -أيضاً- ظهر هذا العلم والذكاء الكبير؛ "فتجلى في مناقشاته علمه الواسع وتمكّنه البالغ من اللغة والأدب والشعر والتاريخ والحديث والفقه وما إليها من العلوم الإسلامية، كذلك إحاطته بضروب العلم القديمة من المنطق والفلسفة (عدا الرياضة) وتحققه بكتابات اليهود والنصارى، والروايات التلمودية خاصة".^٣

فقد استعمل ابن حزم العقل، والبديهة وحضور خاطر في مناظراته، ومن ذلك أنه يروي قصة لأحد أصحابه، وذلك أن هذا صاحب رأى جارية في منامه، فذهب قلبه وهام بها، فجعل ابن حزم يداريه، حتى قال: "إنك لفي [ضعيف] الرأي مصاب البصيرة، إذ تحب من لم تره قط، ولا خلق ولا هو في الدنيا، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر، فما زلت به حتى سلا وما كاد".^٤ و، في إحدى مناظراته مع اليهود، الذين ينسبون إلى الله تعالى في التوراة أنه أمر الصالحين من بني إسرائيل أن يضعوا علامات على أبوابهم، فيخاطبهم ابن حزم بالعقل والبديهة المجردة:

^١ - قلعه جي: ابن حزم في المحلى ص ٢٠.

^٢ - ابن حزم: الفصل ص ١٢٢-١٢٣.

^٣ - بالنتي: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢١٥.

^٤ - ابن حزم: طوق الحمامة ص ١١٥-١١٦.

"أفيكون أسخف من عقول من ينسبون إلى الله تعالى مثل هذا الكلام الفاسد أو ترى الله عز وجل، لا يعرف أبوابهم حتى يجعل عليها علامات! إنّ هذا لعجب"^١.

ولنأتي الآن إلى المعارف والعلوم المستثمرة في المناظرات، ولنبدأ بالعلوم الدينية، و خصوصاً المذاهب الفقهية الإسلامية، فقد درسها ابن حزم دراسة عميقة، سواء في تفاصيلها أو تاريخها وسير أصحابها ومتبعيهم، ففي إحدى مناظراته مع أصحاب مذهب فقهي، يقول: "فإن قالوا مقدار النصف كثير، قيل لهم: عهدنا بكم تقولون: إنّ الثلث الكثير، قلتم هذا في الحوائج وغير ذلك، فما الذي جعله ها هنا في حدّ القليل"^٢، ولا يخفى أنّ هذا الإطلاع على المذاهب الأخرى سيشكل رصيذاً كبيراً و فيضاً من الأدلة، التي يُقرّ بها الخصم ويتبعها.

أما علم التاريخ، فقد برع به ابن حزم، بل ألف فيه كتباً، وتتميز في نظره لهذا التاريخ، فقد كان ينظر إليه بشمولية، ويربط بين أحداثه بذكاء فريد، فرسالة (نقط العروس) - مثلاً - لا تحتوي تاريخاً مفصلاً للخلفاء، وإنما تحوي حقائقهم وأخبارهم، وتظهر قدرة ابن حزم الكبيرة وعقليته المميزة في الجمع والإحصاء والتحليل^٣.

وفي رده على اليهود الذين يزعمون أنّ الله وعدهم بالأرض المقدسة، وأن يسكنوها في الأبد، يقول: "وقد ظهر هذا الوعد، فما سكنوه في الأبد، وما عمروه إلا مدة يسيرة من آباد الأبد، ثم أخلوه وأخرجوا عنه"^٤. وحين يحاول ابن حزم إثبات أنّ بشارة النبي صلى الله عليه وسلم لفاتحي الأندلس، بأن وصفهم بأنهم (ملوك على أسرة)، يؤكد أنّ الأرض المقصودة هي الأندلس دون سواها، ومن أجل ذلك يمدّ يده للتاريخ، ويربطه بنص الحديث، ثم يمزجه بالبدييات العقلية؛ "ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها هبيرة الفزاري، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢..."^٥.

أما الشعر، فكان يوشّح به بعض مناظراته، ويستثمر قدرته الفائقة في التأثير على المتلقين، بل إنّه كان يردّ - أحياناً - على خصومه بالشعر وحده، ومن أبرز تلك الردود،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٥.

^٣ - راجع: مقدمة شوقي ضيف لكتاب (نقط العروس) لابن حزم.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦٠-٥٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٤.

رده على قصيدة إمبراطور الروم (نقفور فوقاس)^١. وهنا سنورد بيتاً، شعرياً لابن حزم يُظهر مدى البراعة التصنيعية لابن حزم، من خلال إيراده خمسة تشبيهات في بيت واحد: كَأني وهي والكأس والخمر والدجى

ثرى وحباً والدر والتبر والسبح^٢

كما وظّف ابن حزم الإحصاء في مناظراته، ومعلوم أنّ الإحصاء والأرقام ذات قدرة إقناعية مميزة، وقد يُستغنى في كثير من الأحيان عن توجيه هذه الإحصاءات والأرقام، ويكتفى بوقعها وتأثيرها على السامع، وقد اعتمد ابن حزم على هذا المنهج في رسالته (في المفاضلة بين الصحابة)، فأحصى لكل واحد ما له وما عليه. وفي رفضه لنوع معين من الإجماع، وهو إجماع أهل المدينة، يأتي ابن حزم بدليل إحصائي، من موطأ مالك بن أنس - رحمه الله -: "فإنّ مالك بن أنس رحمه الله لم يدّع إجماع أهل المدينة في موطنه إلا في نحو ثمان وأربعين مسألة فقط، مع أنّ الخلاف موجود من أهل المدينة في أكثر تلك المسائل بأعيانها"^٣.

كما استثمر ابن حزم معرفته بالعلوم الطبيّة؛ "قال أبو محمد في معرض كلام يصلح رداً على من يقول بالمصادفة في تفسير نشأة الكون: (تراكيب أعضاء الإنسان والحيوان من إدخال العظام المحدّبة في المقعرة، وتركيب العضل على تلك المداخل والشّدّ على ذلك بالعصب والعروق، صناعة ظاهرة لا شك فيها لا ينقصها إلا رؤية الصانع فقط"^٤.

أما معرفته بأمور الزراعة، فقد وظفها على سبيل المثال، في الردّ على النصّ الإنجيلي الذي يُشبّه فيه المسيحُ ملكوتَ السماء "بحبة خردل ألقاها رجل في فدانهِ وهي أدقّ الزراريح كلها فإذا أنبتت استعلت على جميع البقول والزراريح حتى ينزل في أغصانها طير السماء ويسكن إليها، قال أبو محمد: حاشَ للمسيح عليه السلام أن يقول هذا الكلام لكن النذل الذي قاله كان قليل البصارة بالفلاحة، وقد رأينا نبات الخردل ورأينا

^١ - راجع: المنجد: قصيدة إمبراطور الروم نقفور فوقاس.

^٢ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٣٣. نقلاً عن شرح مقامات الحريري للشربشي.

^٣ - ابن حزم: الإحكام ص ٦/٩١٩.

^٤ - الظاهري: نواذر ابن حزم ص ١/١٦١. نقلاً عن الفصل لابن حزم.

من رآه في البلاد البعيدة، فما رأيت قط ولا أخبرنا من رأى شيئاً منه يمكن أن يقف عليه طائر"^١.

وهذا يندرج تحت ما يسمى (بالعلم التجريبي)، ومنه أيضاً، قوله رداً على التنجيم والضرب في الغيب: "وأما القضاء بالكواكب فباطل لتعريبه من البرهان، وإنما هو دعوى فقط، ولا نحصي كم شاهدنا من كذب قضايهم المحققة، وإن أردت الوقوف على ذلك فجرب"^٢. غير أن بعض هذه التجارب قد تكون داخلية، أي على دخيلة النفس، وهذا يقودنا إلى استعانة ابن حزم (بعلم النفس) وذلك من خلال "الاستبطان الذاتي التجريبي، وهي طريقة يستعملها علماء النفس لمعرفة كيف يستجيب الفرد لحالات نفسية معينة، فيخضعون أنفسهم لها"^٣.

أما علم المنطق والفلسفة، فإن ابن حزم دافع عنهما دفاعاً شديداً، إذ كان الموقف العام في عصره، رافضاً لهما، بينما أراد هو أن يُفيد منهما في شكلية المواضيع، وتقسيمها، وفي التعامل مع الأدلة والبراهين. يقول الذهبي: "وكان قد مهر [ابن حزم] أولاً في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة..."^٤ ويقول في موضع آخر: "وَعُنِيَ بعلم المنطق وبرع فيه، قلت وما أعرض عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرفاً عن السنة"^٥.

وقد خالف ابنُ حزم أرسطو، وردّ عليه، مما يؤكد تحرر ابن حزم الفكري وانفتاحه الكبير على مختلف العلوم، فلم يعد مستهلكاً للمعرفة، بل أصبح صانعاً لها. يقول (صاعد) في (طبقاته): "فعني [ابن حزم] بعلم المنطق وألف فيه كتاباً سماه التقريب لحدود المنطق، بسط فيه القول على تبیین طرق المعارف، واستعمل فيه أمثالا فقهية وجوامع شرعية، وخالف أرسطاطاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه. فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط"^٦.

في الحقيقة، لم يخلُ شكل المناظرة عند ابن حزم من التقسيمات المنطقية، كما في هذا المثال: "ثم أقول لك: الناس أربعة: فإنسان استدلل فأداه استدلاله إلى حق ماجور

^١ - الظاهري: نواذر ابن حزم ص ١/٤١. نقلاً عن الفصل لابن حزم.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٣٣.

^٣ - مهرداد: أهمية إسهام ابن حزم الأندلسي في تأسيس علم النفس ص ١٣٥.

^٤ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٨/١٨٦.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٨/١٨٨.

^٦ - صاعد: كتاب طبقات الأمم ص ٧٦.

مرتين وآخر استدل وبحث...^١. وما يؤكد قبوله للفلسفة والمنطق استشهاده بأقوال فلاسفة اليونان وأطبائهم وغيرهم؛ "...وما وصف جالينوس وبقراط، وهما عميدا أهل الطب"^٢.

ومع هذا الأخذ الانتقائي للفلسفة، لا يمكن الإدعاء أنه سلك مسالك أهل الكلام، لأن عبارات ابن حزم سهلة سلسة، قريبة المأخذ، على عكس تصانيف أهل الكلام؛ "وقد تفقدت كتابه [الإحكام في أصول الأحكام] فلم أجد فيه أثراً يذكر من الآثار المذمومة لعلم الكلام"^٣. كما أنّ أهل المنطق يتبعون العقل وحده، وابن حزم أشد ما يبتعد عن العقل إن كان بحضرة نص أو نقل، فإن عدم النص أعمل عقله غاية الأعمال، واستنبط وقاس، فهو وإن حارب القياس الديني، فإنه لم يمنع القياس العقلي، بل استخدمه ليحاج خصومه، كما يظهر في هذا النموذج: "ومن عجائبهم [يعني اليهود] يلتزمون أكل الفطير في مرور الوقت المذكور في كل عام، ولا يلتزمون أكل الخروف، على ما ذكرنا، وهم يقرّون في كتابهم أنهم مأمورون بذلك كله، فإن قالوا: إنّما أمرنا بذلك ما دمنا في أرض القدس، قيل لهم: اتركوا أيضاً استعمال أكل الفطير حتى تكونوا في أرض القدس فلا فرق في كتابكم بين الأمر بالفطير والخروف"^٤.

وهذا النص واحد من نماذج كثيرة، تشهد بخبرة ابن حزم العظيمة بنصوص أهل الكتاب، وربما معرفة أيضاً، باللغة العبرية، ففي نص لابن حزم يناقش فيه زعم البعض من اليهود، أنّ (علم العالم) يقال عنه (ابن العالم)، فيقول معقبا: "وليس في اللغة العبرانية شيء مما ذكر وأدعي"^٥. وكان لابن حزم اطلاع على كتب اليهود المهمة الأخرى، (كالتلمود)، مثلاً؛ "ومن طرائفهم [اليهود] قولهم في كتاب لهم: يُعرف (بشعر توما) أنّ تكسير ما بين جبهة خالقهم إلى أنفه كذا وكذا ذراعاً وقالوا في كتاب لهم من (التلمود) وهو فقهم يسمى (سادر ناشيم)..."^٦. علاوة على ذلك، وظفّ ابن حزم معرفته بعبادتهم وطقوسهم، والتي اكتسبها من معاشته لهم واستفساره منهم، وسخر تلك المعرفة في حجاجهم وإفحامهم؛ "ثم يقولون في عيدهم الذي يكون في عشر تخلو من أكتوبر..."^٧.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٥٥.

^٣ - عبد الكريم: ابن حزم ومنهجه التجديدي ص ٤٧.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦١.

^٥ - ابن حزم: الفصل ص ١/٥٥.

^٦ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦٤.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٦٥.

في الحقيقة، لقد كانت معرفة ابن حزم وإطلاعه على علوم وطقوس، وكتب أهل الكتاب، وبالأعلى عليهم في مناظرتهم له، فقد استفاد من خبرته تلك في نقد كتب أهل الكتاب، وجعل ذلك على مسارين؛ الأول، نقد خارجي تمثل بالاستقراء التاريخي، لمعرفة ظروف نقل تلك الكتب وحفظها، والمسار الآخر، مسار نقدي داخلي، حلل فيه تلك النصوص، وفحصها، وقاس اتفاقها أو تناقضها^١.

محطتنا الأخيرة، هي رصد استثمار ابن حزم لعاطفة الخصم، وعمله على تحريك وجدانه، وصولاً إلى إقناعه أو إلزامه. ونؤكد هنا، أنّ ابن حزم ما كان ينتهج هذا النهج كثيراً، حيث كانت حدّته هي المهيمنة على النقاش، وكان مقتنعا أنّ دوره ينتهي عند بيان الحق، سواءً استجاب المقابل أم لا. والاستثناء من ذلك كله أن يكون المقابل أو المناظر له ودّاً سابق، عند ابن حزم، فيتلطّف معه، أو أن يرى في هذا المقابل باحثاً عن الحق بصدق، ولا يجادل مجادلة الخصم، فإنه حينئذ يستميله ببعض عبارات اللين، علّها تردّه إلى الحق، كمثّل فعله مع سائله هذا، الراغب بالتعلم؛ "قرأت - علمنا الله وإياك ما يزلفنا لديه - سؤالك ووقفت عليه، وذكرت أنك إنّما تسأل سؤال المتعلم"^٢.

وقد أثمر أسلوب التحبب هذا مرة، مع واحد من البلغاء، والذي كان يريد أن يأتي بمثل القرآن؛ "فقلت [يعني ابن حزم] له: أتق الله على نفسك فإن الله تعالى قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها، والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبك الله هذه النعمة وليجعلك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا قبلك، فقال لي: صدقت والله، وأظهر الندم والإقرار بقبحه"^٣. ومثل هذا، خطابه لوجدان خصمه؛ "فتأمل هذا تجده كما أقول لك، ودع عنك بالله حماقات أهل السفسطة..."^٤. وأحياناً، يُشعر مناظره بأنه في صفة، ويريد خيره ومنفعته؛ "فأعيزك بالله من أن يجوز هذا عندك"^٥.

ولم يغفل ابن حزم أن يخاطب النزعة الدينية عند خصومه، فكثيراً ما يربط حججه وأدلته بنبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم -؛ "فهذا أصلحكم الله وإيانا فتيا نبيكم

^١ - انظر: الشرقاوي: منهج نقد النص ص ١٩.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٧.

^٣ - الظاهري: نواذر ابن حزم ص ٣٧. نقلاً عن الفصل لابن حزم.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٩٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٠.

عليه السلام"¹، وكان يربط مواقف الخصم بتقوى الله؛ "فلو اتقى الله هؤلاء القوم لم يتكلموا فيما لا يحسنونه"²، وأحياناً، يستحلفهم بالله: "ونحن نسألهم ونناشدهم الله ما الذي يدينون به ربهم تعالى: أهو ما ورد عن الصحابة والتابعين، أو ما وجدوا في المدونة"³. وهكذا، فإن ابن حزم قد استغل محصولة العلمي، وخبرته في فروع شتى من العلوم، في مناظرته، واستطاع أن يستحضر الحجة المناسبة للخصم المناسب، وحسب ما يقتضيه دليل الخصم، مما جعله متفوقاً على خصومه، لا يصمد أحدهم أمام علمه ولسانه.

٥- الأدلة والبراهين في مناظرات ابن حزم

يعدّ الدليل محوراً أساسياً في المناظرة، فبه يُفحّم الخصم ويُلزم. وحين نتابع ابن حزم، ونرى كيف استخدم الدليل واهتم به، فإننا سنكتشف عن قوة ابن حزم نفسه أو ضعفه، لأنّ الدليل هو المبرر المنطقي لتبني وجهة نظر ما، وبغيره تصبح وجهة النظر عبثية لا قيمة لها.

سنحاول هنا أن نكتشف دور الدليل في مناظرات ابن حزم، وكيف نظر ابن حزم إلى هذا الدليل؟ ومن أين اكتسب أدلته؟ وهل كان يتسلسل في إيراد أدلته؟ وما هو موقفه من أدلة خصومه؟ ثم سنتابع كيف استغل ابن حزم أدلة خصومه وبراهينهم في عملية الاستدلال العكسي؟

إنّ الهاجس الشكّي كان حاضراً بقوة في مناظرات ابن حزم، بل وفي تفكيره ونظرته للأشياء حوله، لقد كان ابن حزم ذكياً لدرجة أنّه لا يمكنه قبول أيّ قضية واعتبارها مسلمة، إلا بعد أن يراجعها، ويتبنّى موقفاً خاصاً منها. في الحقيقة، لم يكن ابن حزم يحاول مناكفة أحد أو مشاكسته حين يرفض التسليم له دون برهان، بل إنّ طبيعة ابن حزم، وطبيعة منهجه الظاهري تحثّه عليه الاعتماد الكلي على الدليل والذي يجب أن يكون بكيفيات خاصة محددة.

إنّنا حين نتابع ابن حزم لا يمكن أن نراه غافل العقل في أيّ مناظرة من مناظراته، أو مستسلماً لكلام خصمه أو مقدماته، بل إنّك تُدهش منه حين يستخدم جزئيات صغيرة جداً، ينتقض بسببها نتائج كبرى، إنّ روح ابن حزم القلقة ونفسه الشكاكة قد

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٦٩-٣/١٧٠.

² - المصدر نفسه ص ٣/٧٤.

³ - المصدر نفسه ص ٣/٧٨.

جعلته محاوراً غير مرغوب فيه من ناحية خصومه، "وإنما هو حاضر العقل يقظ الذهن دائماً، كل ما يقوله يجب أن يمر من رأسه أولاً، ويجب أن يتردد في تلافيف مخه، وكل ما يقرؤه أو يحفظه، مما هو في حاجة إلى إيراده، يجب أن ينظر فيه نظر الناقد البصير..."^١.

لقد استفاد ابن حزم من هذه الروح الناقدة مرتين، مرة في تمحيص أقوال الخصم وغربلتها كلمة كلمة، ومرة حمته من إيراد دليل واهن، أو برهان لا يتوافق مع منهجه، لأنه لا بد أن يكون قد فحصه ونقده قبل أن يقول به.

"وليس قول أحد منهم حجة على الآخرين منهم، والواجب ردّ ما تنازعوا فيه إلى أمر الله تعالى"^٢. يمكننا اعتبار قولة ابن حزم هذه منهجاً استدلالياً، شمل كل مناظراته ومؤلفاته، فكل قول يجب أن يتأيد بدليل حتى يصبح حجة، وإلا فلا قيمة له. إنّ فاعلية الدليل - في اعتبار ابن حزم - تتحدد بقدرته على إنتاج الدلالة، وهذا الإنتاج محله الذهن، حيث يفهم الدليل ويتفاعل معه بحسب قوة هذا الدليل وقدرته على الإبانة^٣.

وقد استمد ابن حزم أدلته بشكل رئيسي من القرآن الكريم، ثم من الحديث النبوي الشريف، واستفاد كذلك من التاريخ ليضع خصمه أمام حقائق لا يمكن نكرانها، وربما اعتمد أحياناً على معرفته الجغرافية في ردّ مزاعم الخصوم، وكان للشعر - أيضاً - حضور في إستشهاداته، خاصة في تأكيد الدلالة اللغوية للمصطلحات^٤. وتأسيساً على هذا يمكن اعتبار أدلة ابن حزم - في غالبها - نصيّة، وهذا بالتأكيد يتماشى مع منهجه الظاهري المعتمد على النص.

وقد يُظن أنّ هذا الاعتماد النصي سيترتب عليه جمود فكري أو شحّ في البراهين، في الحقيقة، هذا الظن ليس في مكانه، فثمة أدلة متولدة من النصوص بكيفيات متعددة؛ منها أن يكون هناك مقدمتان تنتجان نتيجة جديدة ليست منصوصة في أحدهما، أو أنّ هناك شرطاً معلقاً بصيغة، فحيث وجد فواجب ما عُلّق بذلك الشرط، ومنها أقسام تبطل كلها إلا واحداً فيصح ذلك الواحد، أو أن يكون هناك قضايا واردة مدرّجة، فيقتضي

^١ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١١.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠١.

^٣ - انظر: الديري: طوق الخطاب ص ١٠٨-١٠٩.

^٤ - انظر: منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد ص ١٦٥-١٧٠.

ذلك أن الدرجة العليا فوق التالية لها وإن لم يُنصَّ على أنها فوق التالية، ومن طرق التوليد أيضاً ما يسمى بعكس القضايا^١.

وهنا نؤكد أن ابن حزم كان حريصاً غاية الحرص على إيراد دليل فأكثر على أقواله مهما صغرت، فلم تأت تلك الأقوال إلا مشفوعةً بدليل جليٍّ أو ضمنيٍّ، حتى إنه حين يورد الأحاديث النبوية، مثلاً، لا يقتصر على عزوها إلى كتب الحديث، بل يورد سلسلة السند كاملةً. والاستثناء من ذلك أن يكتب ابن حزم الآثارَ من غير أسانيد، لأنه - كما يقول ابن القطان -: "لا يحتجُّ بها، وإنما يوردها مؤنساً لخصومه مما وضعَ من مذهب، وهو لا يستوحش بعدمها ولأنه قد عهدهم يقبلونها كذلك"^٢.

و بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقاً، من مصادر رئيسية للأدلة عند ابن حزم، فإنَّ هناك مصادر ثانوية، كأن ينقل ابن حزم عمَّن يثق به؛ "إلا أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن أُنْفِق على رسوخه فيه يقول..."^٣، ومثله قوله: "قال أبو محمد: قد قال بعض العلماء المتقدمين..."^٤، على أن اعتماده على مجهولين نادرٌ جداً. ويرفض ابن حزم الاستدلال على صحة قضية، إذا كانت مبنيةً على سؤال تعجيزي مُحال؛ "...من المسائل التي هي محالية السؤال، فلا أجوبة لها بالمقابلة لأنك إن قابلت المحال كنت محيلاً..."^٥. ولا يمتد هذا الرفض للأسئلة التعجيزية إذا صدرت منه هو، فقد يلجأ إلى طلب دليل تعجيزي من الخصم، ومن ذلك حين يردّ على القصة المزعومة بأن رجلاً من بني إسرائيل قُتل، فأمر موسى -عليه السلام- بني إسرائيل بذبح بقرة، ثم يضربوا القتيل بفخذها، فقام القتيل وقال: قتلني فلان. إنَّ رفض ابن حزم لهذه القصة متعلق بمنهج العام في الاستدلال، فهذه القصة - مثلاً - لا يمكن الوثوق بإسنادها، ثم بعد انتهاء ابن حزم من الطعن في السند قال: "فليرونا مقتولاً ردَّ الله تعالى روحه إليه بحضرة نبي أو بغير حضرته ويخبرنا بالشيء ونحن حينئذ نصدقه، وأمّا أن نصدّق حياً يدعي على غيره فهو أبطل الباطل بعينه"^٦.

ويفرّق ابن حزم بين الدليل والإقناع، فالإقناع هو الإدراك الذي لا يحتاج إلى برهان، كادراك البصر النور، لأننا إذا طالبنا ببرهان على ذلك احتجنا إلى برهان على

^١ - انظر: الديبري: طوق الخطاب ص ١٦٠-١٦١.

^٢ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/٥٨. نقلاً عن الوهم والإيهام لابن القطان.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/١٨٥.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٤٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٣٨٦.

^٦ - ابن حزم: المحلى ص ١١/١٠٦.

البرهان، وهكذا^١. وهذا يقودنا إلى قطعية الاستدلال، والتي كانت مطلباً رئيساً لابن حزم في التعامل مع البراهين، لأنّ الاستدلال العقلي متى سلمت مقدماته، وانتهت نتائجها إلى نهايات متوافقة مع الحس السليم سيستفيد القطعية. وهذه القطعية هي حجر الزاوية في المشروع الحزمي، الهادف إلى إعادة تأسيس الفقه الإسلامي على أسس قطعية لا تخمينية ظنية، ومن أجل هذا أفسح المجال أمام المنطق الأرسطي، وحارب القياس الموّلد لنتائج لا يمكن الوثوق بقطعيّتها^٢.

لقد اتسم ابن حزم بعقلانية واتساق كبيرين، وقلماً يؤخذ عليه تناقض أو تصادم في أقواله، وهذا يُردّ إلى ذكائه في استخدامه للأدلة بتسلسل سهل واضح، فيبدأ بالمقدمات البسيطة المسلّمة عند الخصم، ثم ينتقل من دليل أعم إلى دليل أخص، حتى ينتهي إلى التسليم بداهةً بدليله^٣. ولم يكن ابن حزم يتعامل مع الدليل بأفق ضيق، بل كان يأخذ بمجموع الأدلة في قضية ما، "لأنّه ليس شيء من كلامه عليه السلام أولى بالقبول من بعض، بل الكل واجب قبوله، ولا تعارض في شيء منه، فصَحّ بهذا ما قلنا من ضم ما يوجد في النصوص ضمّاً واحداً، وقبوله كله وإضافته بعضه إلى بعض"^٤. إنّ هذه الشمولية في النظر إلى الأدلة، رغم ما تحتاجه من إطلاع واسع وذكاء مفرط في الجمع بين الأدلة، خاصة تلك التي يظهر عليها التناقض مع الأدلة الأخرى - كلّ هذا أتقنه ابن حزم، وهذا - بالمقابل - صعب مهمة مناظريه في نقض دليله.

كما كان ابن حزم لا يكتفي بإفحام خصومه بدليل واحد، بل يعتمد إلى أدلة إضافية تزيد من إفحامهم. وإذا كان المتعارف عليه عند أهل المناظرة أنّ الدليل يتوجب على المدعي أو المثبت لمسألة ما، فإنّ ابن حزم يذهب أبعد من ذلك، فيُلزم النافي -أيضاً- الدليل. وفعلاً خصص ابن حزم فصلاً في أحد كتبه أسماه (هل على النافي دليل أو لا؟)^٥. وفي هذا يقول: "وجدنا كل نافٍ مدعيًا للصدق في نفيه، ووجدنا كل مثبت مدعيًا للصدق في إثباته ما أثبت، فلزم كلنا الطائفتين أن تأتي بالبرهان على دعواهما"^٦.

أمّا اختيار ابن حزم لأدلته، فكان يكثر من تلك القريبة من خصومه، والتي يؤمنون بها، فإذا خاطب يهودياً - مثلاً - قال: "ولكن لو تذكر هذا الجاهل ما يقرؤونه في

^١ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٦٦.

^٢ - انظر: بوقرة: تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم ص ٢٣٥-٢٣٦.

^٣ - انظر: عبد الكريم: ابن حزم ومنهجه التجديدي ص ٥١.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٦.

^٥ - راجع: ابن حزم: الإحكام ص ٩١-١/٩٤.

^٦ - المصدر نفسه ص ١/٩١.

كفرهم المبدل وإفكهم المحرف... في كتابهم الذي يسمونه (التوراة)^١. وهذا التقارب من الخصم في اختيار الدليل يعطي ابن حزم أفضلية، ويضيق مساحة المناورة أمام خصمه، حيث لا يمكنه رفض نص الدليل لأنه منتهم إليه، وسيكتفي بمحاولة تأويله أو صرفه عن الفهم الذي فهمه ابن حزم.

لقد أدى احترام ابن حزم للدليل والاستدلال إلى التسليم أحياناً بأدلة الخصم، حتى تلك التي لا يتشجع لها؛ "ونحن وإن كنا لا نبطل صلاة من لم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فقد قال بذلك من ذكرنا"^٢. وهذا الاحترام للدليل قد يأخذ شكلاً آخر، ممزوجاً بالإستدراج للخصم، فيفترض ابن حزم صحة دليل الخصم، ليظهر له - لاحقاً - أن ما يترتب على هذا الاستدلال خاطئ على كل حال؛ "وما صحّ من نحو هذا قط، ولو صحّ عن مُطَرَف، وهو لا يصح، لأمكن أنه نعس على دابته فرأى ذلك في النوم، فكيف ومثل هذا لا يقطع به..."^٣

وهذا الاهتمام بأدلة الخصم وردّها، هو خطوة تسبق أو تلحق بإيراد ابن حزم لأدلته هو. ومن الطبيعي أن تتنوع هذه الأدلة، فمنها أدلة استقرائية إحصائية، فكثيراً ما يصرح ابن حزم بأنه استقصى كل ما في باب ما، ويكون في هذا الاستقصاء صارماً مع ذاته لا يتغاضى عن أي دليل للخصم مهما صغر، وقد ساعده على حسن الاستقراء حافظته القوية، وعلمه الراسخ وطول نفسه في البحث^٤، ومن أمثلة أدلته الإحصائية: "وأما قولهم: إنّ الذي عليه الأكثر فهو الهدى والطريقة المثلى، فكلام في غاية السخف، لأنّ الحنفيين كانوا أكثر من المالكيين أضعافاً مضاعفة، ولعلمهم اليوم يوازونهم في العدد، والشافعيين أكثر منهم..."^٥.

وقد يأتي القياس العقلي دليلاً عند ابن حزم، ففي الرسالة التي يدافع فيها عن الأندلس، ويردّ فيها على من يعيب عليها عدم وجود مؤلف يحوي أسماء أعيانها، يقول: "إنّ بغداد لم يكن لها مثل هذا المؤلف، ولو كان في شيء من ذلك لكن الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم"^٦.

^١ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٤٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢١١.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٢.

^٤ - انظر: عبد الكريم: الإمام ابن حزم ومنهجه التجديدي ص ٥٣-٥٦.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩٦.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٦.

وقد يستدل ابن حزم بأدلة فيها طرافة تنم عن ذكاء، ومن هذا ما استدل به في أحد مناظراته مع الباجي، حيث قال له الباجي: "تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحرّاس، قال ابن حزم وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة. أراد أنّ الغني أمنع لطلب العلم من الفقر".^١

ولنمضي الآن إلى شواهد من مناظرات ابن حزم، توضح لنا كيف تعامل ابن حزم مع أدلة الخصم، وكيف استفاد منها في الرد على خصومه، وكيف كان يعكس الدليل ليكون حجة له لا عليه. وأول ذلك أنه كان ينفي عن خصمه العلم كلياً، وبالتالي ستكون أقواله لا اعتبار لها، لأنه يخوض بما ليس له به علم؛ "فهذا علم [علم الحديث] ما يُدرى منهم أحد يدرى فيه كلمة فما فوقها، ومن تكلم فيما لا يدرى فقد تعرض لسخط الله".^٢

وأحياناً، يُفقد ابن حزم دليل خصمه قيمته ابتداءً، بأن يبيّن عموميته، وعدم اختصاصه، فيقول عن كلام الخصم: "... كلام يشاركهم فيه كل فرقة من فرق الإسلام، فليسوا أولى بهذه القصة من أصحاب أبي حنيفة ولا من أصحاب الشافعي".^٣

وفي بعض الأحيان، يؤكد ابن حزم لخصمه أنّ الدليل الذي استدل به يعود إليه؛ "فهذه والله طريقتنا لا طريقته، وسبيلنا لا سبيلهم، هذا أمر لا يستطيعون إنكاره؛ لأنهم لا يشتغلون بحديث أصلاً، ولا بأثر"، وكما في قوله أيضاً: "...وهو قولنا لا قولهم، لأننا نحن الذين ندين الله تعالى بكل ما أسنده لنا الثقة عن الثقة حتى يبلغ إليهم عن النبي صلى الله عليه وسلم".^٤ وقد بيني ابن حزم استدلاله على مسلمّات يعترف بها الخصم؛ "وهم معترفون بأنّ التوراة طول أيامهم في دولتهم لم تكن عند أحد، إلا عند الكاهن وحده، وبقوا على ذلك ألف ومائتي عام، وما كان هكذا لا يتداوله إلا واحد فواحد فمضمون عليه التبديل والتغيير والتحريف".^٥

وقد استفاد ابن حزم من معاشرته للخصوم، وطول المناظرة معهم، حتى بات يأتهم من الطريق التي يسلكونها في الاستدلال؛ "فإني واعظك بمثالك الذي مثلت"،^٦

^١ - الحموي: معجم الأدياء ص ١٦٥٢.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٧٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٧٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٧٧.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٦٦.

^٧ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٩.

ويمكن أن نراه يبني دليله على قول خصمه؛ "وقد قال بعضهم: إنّ هذا من المعجزات، فأجبناه: بأنّ المعجزات إنّما تكون للأنبياء عليهم السلام"^١. وقد يكتفي ابن حزم من إيراد دليله، بأن يبيّن تناقض أقوال خصمه؛ "فكيف تعيّن القول بما لم يقع الإجماع على استعماله وأنتم تقولون في أكثر أقوالكم بما لم يقع الإجماع على استعماله"^٢. وقد يستفيد ابن حزم من بعض الكلام الوارد في المناظرة، والذي قصد به الخصم الطعن، فيجعله ابن حزم دليلاً في صالحه؛ "فشهدوا لنا بأنها كتب أتقناها وضبطناها... وهذا ضد ما حكموا من تعريتنا من الشيوخ ومن ضعف الرواية، فهم لا يدرون ما يقولون ولا يبالون بالكذب والفضيحة"^٣. أمّا عكس السؤال أو الدليل فكثيراً ما يستعمله ابن حزم؛ "فالجواب - وبالله التوفيق- أنّه يُعكس عليهم هذا السؤال"^٤. وقد يردّ الحجة على الخصم بمثلاً؛ "يقولون عار من الشيوخ، وهم ما كان لهم شيخ قط، ولا عمّروا لمجلس حديث ولا اشتغلوا بتفنيده"^٥.

٦- نتائج مناظرات ابن حزم

هذا الموضوع يحتاج إلى عمليّن متوازيين، فنتائج المناظرة إمّا أن تكون نتائج مباشرة تبين ما وصل إليه المتناظران، وهل استسلم ابن حزم، أم انتصر؟ وهل أعلن ذلك أم أخفاه؟ أمّا النتائج غير المباشرة، فهي النتائج بعيدة المدى، ويظهر فيها مآل مناظرات ابن حزم عموماً، وكيف كان عاقبته، وما هي المكاسب التي تركها للأجيال بعده؟ ولنستعرض أولاً النتائج المباشرة للمناظرة، فابن حزم كثيراً ما يعلن بطلان أدلة الخصم، وتفوّق أدلته هو، كأن يقول في نهاية مناظرته: "فإذ قد بطلت هذه الديانات..."^٦، وفي أحيان قليلة، يعلن ابن حزم في بداية المناظرة حكماً رفضاً لأدلة الخصم، لأنّ هذا الخصم بالأساس مرفوض من قبل صاحبنا؛ "... لا شك فيه أنّه غير صحيح الإيمان..."^٧. وبعد أن يعرض ابن حزم أدلته ويثبت صحتها يقرر انتصاره في المناظرة؛ "فإذا قد صحّ

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦٤.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٧٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٨٢.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٩٢.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٨٢.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٣٨.

^٧ - المصدر نفسه ص ٤/٣٨٥.

هذا كله...^١، أمّا إن كان يستعرض أدلة خصمه فإنّه يعلن فوز نفسه بعد أن يقول: "ها هنا انتهى كل ما ظنّ المائق أنّه اعترض به، قد بان فيه كله زوره وجهله واغتراره"^٢.
 أمّا إن كانت مناظرته حول قضية جزئية، فإنّه يعلن فوزه حين تتضح المسألة؛ "فارتفع التناقض الذي لا مدخل له في شيء من القرآن"^٣. وأخيراً، قد تكون نهاية المناظرة وصول ابن حزم إلى اليقين في قضية ما؛ "فتدبرت هذا فأيقنت أنّه لو كان علمها [يعني نفس الإنسان] ما علمت بقوتها وطبيعتها دون مادة من غيرها لكان المعجز لها مما جهلته أسهل عليها من الممكن لها مما علمت"^٤.

ومن النتائج المباشرة للمناظرة أن يعلن ابن حزم بطلان أدلة الخصم؛ "فاستبان معنى الآيتين بظاهرهما دون تكلف تأويل، وبطل ما ظنّه هذا الجاهل"^٥، وأحياناً، قد يستسلم الخصم صراحة؛ "قال [يعني الخصم]: والله ما أجد بعقلي إلا ما تقول [يعني ما يقوله ابن حزم]"^٦. وقد يتزايد ابن حزم في إعلانه فوزه، بأن يؤثّب الخصم ويعيب عليه مسلكه؛ "... وبعد، فلتطب نفسك بعد أن تذيقها برد اليأس، على أن تعارض بهوس ما في تلك الرسالة الحق... فأقصر فهو أروح لك وأجمل بك"^٧. وربّما وجّه ابن حزم نصيحة لخصمه، بعد أن أفحمه؛ "فأعلم الآن بما هداك الله موقع الكفر وفضاعته وعظم خطره في الشر والخسران من كل من ألحد في توحيد الله تعالى"^٨.

وقد ينهزم الخصم ولا يقرّ بذلك صراحة، بل يصمت بحضرة ابن حزم؛ "ولكنهم [يعني الخصوم] بُكم إذا ضمّنا وإياهم مجلس، فإذا غابوا أتوا بمثل هذه البلاغم المضحكة"^٩، لذا كان ابن حزم يترك لبعض الخصوم فسحة للإقرار بالنتيجة التي يطمئن لها ضميرهم ووجدانهم؛ "ومن أنكر ما قلنا بلسانه فحسبه قلبه يعرفه معرفة ضرورية"^{١٠}، وكقوله: "هنا قف يا أخي وقفة، وتأمله بقلب سليم، فإنّه أظهر من كل ظاهر"^{١١}.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٣٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٥٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٥١.

^٤ - المصدر نفسه ص ١/٤٤٦.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٥٠.

^٦ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٤.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٨-١٢٧.

^٨ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٥.

^٩ - المصدر نفسه ص ٣/٨٨.

^{١٠} - المصدر نفسه ص ٣/١٧٥.

^{١١} - المصدر نفسه ص ٣/١٩٣.

أمّا الشكل الثاني لنتائج مناظرات ابن حزم، فإنّه مآل المناظرات، وأثرها على حياة ابن حزم عموماً، بل وتأثيرها في الفكر الإسلامي عموماً. فلم يكن ممكناً أن تمرّ آراء ابن حزم دون أن يتبعها هجوم عليه، من فقهاء عصره وغيرهم، فكثرت رغبة الانتقام عند بعضهم من ابن حزم^١. لقد مُني ابن حزم بهزيمة نكراء -على حدّ وصف بعض الدارسين- أمام خصمه الأكبر أبي الوليد الباجي، وقد صاحب هذه الهزيمة دسائس كثيرة حول ابن حزم، ووشايات وصلت إلى حاكم (ميورقة) الأمير (أحمد بن رشيق)^٢. وقد وصف بعضهم مجالس المناظرة تلك (بالفضيحة)، أخرج ابن حزم على أثرها من (ميورقة)^٣، وأدّت في النهاية إلى إبطال مذهبه^٤.

وقد يكظم ابن حزم غيظه، ويمتنع عن الرد على من يهاجمه، كما حدث بينه وبين ابن عمه (أبي المغيرة بن حزم) فقد "حدث بينهما هنات ظهر عليه [أي على ابن حزم] أبو المغيرة وبكته حتى أسكته، لأنّه كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده"^٥. فهذا السكوت من ابن حزم كان مقصوداً، رغبة منه في المحافظة على صلة القربى.

إنّ هذه الهزائم -إن صحتّ على إطلاقها- لن تحطّ من مكانة ابن حزم، خاصة إذا أدركنا الظروف المشحونة المحيطة به، وتربص الجميع به، لكنّ الحق أنّ ابن حزم استطاع "أن ينتصر على الأحقاد والضغائن... ويغلب الفقهاء ويمضي مع ذلك في أداء رسالته"^٦.

أما الضريبة التي دفعها ابن حزم فقد كانت مرتفعة جداً، فقد عودي من أغلب علماء عصره، وضيق عليه، بل لقد نهى هؤلاء العلماء عن النظر في كتب ابن حزم وخاصة كتاب (الملل والنحل) لما فيه -حسب وصفهم- من الإضرار بأهل السنة والتشنيع عليهم^٧. كما حُضر بيع كتب ابن حزم بالأسواق، وربما مزّقت في بعض الأحيان^٨. ثم طرد ابن حزم لأنّه كان؛ "كثير الوقعة في العلماء بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه، وما زالوا به حتى بَعْضوه إلى ملوكهم فطردوه عن بلاده"^٩. وينقل

^١ - انظر: عوض: متردون لوجه الله ص ٥٨.

^٢ - انظر: يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي ص ٦.

^٣ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٥٧/١. نقلاً عن ترتيب المدارك لليحسبي.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ٣/١٣٠. نقلاً عن فتح المالك لمحمد بن عlish.

^٥ - ابن بسام: الذخيرة ص ١/١٣٣.

^٦ - الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ٢١٠.

^٧ - انظر: السيكي: طبقات الشافعية ص ٩٠.

^٨ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ٣/٣١ نقلاً عن مقدمة ابن خلدون.

^٩ - ابن كثير: البداية والنهاية ص ١٣/١٦٢.

(ابن بسام) عن (ابن حيان): "فتمالوا [أي فقهاء عصره] على بغضه، وردّوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنّعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة وبها توفي رحمه الله".^١

وقد كانت فجيرة ابن حزم الكبرى عندما أحرقت كتبه؛ "... ضاق به علماء عصره فاستعانوا بالمعتمد بن عبّاد حاكم اشبيلية من أجل إحراق كتب ابن حزم علناً".^٢ ومع كل هذا البلاء فإنّ "واحداً من آرائه لم يهتز أو يسقط أمام كل الوشائيات والأكاذيب والافتراءات التي اختلقها خصومه ضده، إنّ الأمل في داخله لم يستسلم لليأس... إنّهُ لم يندم على رأي واحد في حياته مطلقاً... في الواقع: إنّ ابن حزم لم يحصل على كثير مما استحقه، ولم يستحق كثيراً مما أصابه".^٣

كان هذا جزءاً من الصورة، أما باقي الصورة فقد "اعتنى بها [يعني كتب ابن حزم] آخرون من العلماء وفتشوها، انتقاداً واستفادة وأخذاً ومؤاخذه، ورأوا فيها الدر الثمين".^٤ كما أنّ أهل الحديث لم يتكلموا فيه لإدراكهم الخدمة الجليلة التي أسداها لعلم الحديث النبوي، فقد "تكلم فيه كل أحد ما خلا أهل الحديث، فإنّهم أثبتوا على حفظه. كان إماماً عارفاً بفنون الحديث".^٥

ومع كل ما سبق، فإنّ ابن حزم استمر حتى آخر لحظة من عمره يُعلّم وينشر دعوته؛ "... وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا له، يبيّث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك، من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة، الذين لا يخشون الملامة، يحدثهم ويفهمهم ويدرسهم، ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف والإكثار من التصنيف".^٦

أمّا نتائج المناظرات أو ثمارها، فقد استفاد ابن حزم نفسه منها، إذ جعلته أكثر دراية بأصول الجدل، وأكثر دقة ومنطقية، وصاحب صرامة عقلية قلما نجد لها نظيراً

^١ - ابن بسام: الذخيرة ص ١١٦٨.

^٢ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٤٦.

^٣ - عوض: متمرّدون لوجه الله ص ٦٠-٦١.

^٤ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/١٨١. نقلاً عن سير النبلاء للذهبي.

^٥ - الأتابكي: النجوم الزاهرة ص ٧٦.

^٦ - ابن بسام: الذخيرة ص ١٦٨-١٦٩.

عند غيره من مفكري عصره، ففي تأليفه كان يقسم كتابه إلى موضوعات محددة، ويشرح طريقته في البحث والتقسيم، ويحدد منهجه، وهذا في جميع مؤلفاته تقريباً^١.
أمّا ما استفاده المنهج الظاهري من مناظرات ابن حزم، فقد كان كبيراً جداً، فقد كانت المناظرات تعمل على "ترسية الظاهر تقريراً وتصويراً"^٢، وعلى نطاق أوسع، فقد حارب بمناظراته البدع والجمود اللذين اعتريا المسلمين في تلك الحقبة من الزمن، كما كان موثقاً تاريخياً مميزاً بموضوعيته^٣.

أما الأمير الموحي (عبد المؤمن) وحفيده الأمير (يعقوب) من بعده، فقد حاولا حمل الناس على فقه الإمام ابن حزم خلال فترة ملكهم^٤. بل لقد "غدا المذهب الظاهري هو المذهب الذي أخذت به الدولة"^٥. كما كان لابن حزم أثر واضح في تأسيس علم مقارنة الأديان، خاصة في كتابه (الفصل) وردوده على ابن النغيلة^٦. كما جعلته جهوده العظيمة في نقد أسفار الكتب المقدسة رائداً في هذا المجال؛ "وابن حزم مثلاً سابق للقرن السابع عشر والفلسفة الحديثة بستة قرون أو أكثر، وإنّ حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب قد تأثرت فلاسفتها وأعلامها بالفكر الإسلامي واستمدوا منه بشكل مباشر أو غير مباشر"^٧.

في النهاية، يمكن القول أنّ التاريخ سجل لابن حزم أنّه المفكر الموسوعي الكبير الذي ترك ثروة هائلة من العلم في مجالات كثيرة، وبغضّ النظر عن الموقف من آرائه سيبقى ابن حزم نموذجاً فريداً للعقل الإنساني المبدع الخلاق.

^١ - انظر: إبراهيم: ابن حزم المفكر الظاهري ص ٥٨، ٦١.

^٢ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ٢/١٤٥.

^٣ - انظر: رضوان: الإمام ابن حزم الأندلسي وأثر النزعة الظاهرية ص ٦٠.

^٤ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٣١-٣/١٣٣. نقلاً عن فتح العلي المالك لمحمد بن عليش.

^٥ - هوتسما: موجز دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٢/٧٠١٠.

^٦ - السيوطي: الجدل الديني ص ٢٥٥.

^٧ - الشرقاوي: منهج نقد النص ص ٤٦.

الفصل الرابع

١ - مزاج ابن حزم في المناظرات

٢ - أبرز مناظري ابن حزم

١- مزاج ابن حزم في المناظرات

تظهر أخلاق الإنسان على حقيقتها عند إثارتها، فلا يستطيع أن يوارى سيئها، ولعل المناظرة أحد أشد المحفزات المثيرة التي تكشف أمزجة المتناظرين، وتجعلها أكثر ظهوراً. سنحاول هنا أن نرصد المزاج الحزمي، في تقلباته المتعددة والحادة، وسنعرف إلى أي مدى كان ابن حزم ثابت المزاج أو متقلبه؟ وهل كان يبدي ليناً ورخاوة؟ وهل كان مغروراً معتداً بذاته، أم كان واثقاً بنفسه؟

وقبل الخوض في هذا الأمر، والولوج إلى أعماق صاحبنا، يجب أن نتذكر أنّ صاحبنا هو في الأصل خبير نفسي؛ "ولابن حزم فوق ما سبق دراسات نفسية درس فيها النفوس وتعمّق في سبر أغوارها في عبارات كاشفة موفقة، فهو يحلل النفوس، ويدرس الأفكار...".^١ ولا بد أن نعترف أن صاحبنا عاش في عالم غير الذي يريده، فهو في الحقيقة مختلف عن أهل عصره، لا تقارب بين مزاجه وأمزجة أهل زمانه.

فإذا عدنا إلى ابن حزم في طفولته، وجدنا أنّ لها أشد التأثير على مزاجه، فمعيشتة بين النساء جعلته يتعلم منهن "أشياء ليست أقل نفعاً ولكنها مؤذية في سن الطفولة، لقد أظهرته في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ومناورات القصور، وحيل النساء، فنشأ صبيّاً سريع التأثر، سيء الظن بالمرأة، وقد خبرها عن قرب".^٢ فاقتران ابن حزم بالمرأة أثر في مزاجه واهتماماته لأنّ "الإطار الثقافي للمرأة واهتماماتها ودوافع سلوكها تختلف عن الرجل، والعادات والاتجاهات التي ارتبطت بدور المرأة ووظائفها خلال آلاف السنين لا بد أن تترك بعض الآثار على سلوكها، تنتقل باللاشعور لأجيال المتعلمين الذين تتعامل معهم... فالعاطفة الزائدة، والإهتمامات النسائية، وطريقة الاستجابة للمثيرات المختلفة، واتجاهات المرأة نحو بعض القضايا كل ذلك - وغيره - يمكن أن ينتقل تدريجياً مع طول عشرة الصبيان للمرأة، معلمة وموجهة ومربية ومرشدة...".^٣

أما المزاج الأكثر حضوراً عند صاحبنا فهو المزاج الحاد والعكر والنزق، ونحن إذ درسنا حدة لسانه فيما سبق، وسندرس فيما يلحق هجاءه، فلا حاجة إلى الإسهاب هنا، لكننا يجب أن نقول إنّ هذا المزاج هو الأكثر حضوراً في مناظراته ومؤلفاته.

^١ - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٧.

^٢ - حسان: ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه ص ٤٢. نقلاً عن مقدمة الطاهر مكي لكتاب الأخلاق والسير لابن حزم.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤١.

وقد راقَ (لأبي زهرة) أن يقسم مؤلفات ابن حزم باعتبار المزاج المسيطر عليه عند تأليفها، فرأى أن قسماً ألفه ابن حزم قبل إصابته بالمرض، وكان مزاجه فيها هادئاً رائقاً، ومن ضمن هذه المؤلفات (طوق الحمامة)، وقسماً ألفه بعد إصابته بالمرض، أصبح فيه حاداً نزقاً، خاصة في كتب الخلاف^١. لكنَّ (إحسان عباس) لا يُسلم بمثل هذا التقسيم؛ "وقد بقيت تلك الحدة الرومنطيقية في معاشة الماضي محور شخصية ابن حزم حتى بعد سنوات من كتابة الطوق وأحسبها لم تتغير إلى النهاية، وإثما كانت تتلبس أشكالاً مختلفة"^٢. فإذا أخذنا بالاعتبار ما لاقاه ابن حزم من جفوة وصدّ دائم من قومه، فسيتضح لنا سرّ هذا المزاج الهائج العكر.

كل هذا لا يمنع أن نصدف هنا أو هناك مزاجاً رائقاً لابن حزم، ونحن إذ خصّصنا فصلاً من دراستنا هذه عن شعرية نثر ابن حزم ولينه، فإننا سنكتفي هنا بنماذج قليلة، تكشف لنا هذا الهدوء والإعتدال في مزاجه. فأحياناً يخاطب سائليه بودّ كبير، فيقول مثلاً: "فهذا أيها الصفوة الفاضلة..."^٣. ومرة يخاطب مقابله بالفاظ عذبة؛ "فتثبت يا أخي هاهنا"^٤. كما يمكن أن نرى مثل هذا النص الذي يفيض حباً وعطفاً؛ "سلام عليكم أيها الأخوة الفضلاء والصدقاء الكرام، المغتبط بودهم، الذي هو أفضل من القرابة الواشجة والمجاورة الدائمة، فقد بشرّ الله عز وجل المتحابين فيه بأتم البشري"^٥. وقد يذهب به مزاجه إلى المدح؛ "فلن تزل الدنيا بخير، ما دام مثلك مرفوع اللواء معمور الفناء..."^٦.

ولكن ما سرّ هذا التناقض المزاجي؟! إننا نقول إنّ الأمر لم يبلغ درجة التناقض، بقدر ما هو استجابة صادقة للظروف والبيئة، وانعكاس لأفكار ابن حزم ورؤيته، إنّ الصراع بين الأمل واليأس داخل ابن حزم جعله متقلباً بين الحدة والهدوء، كما أنّ حساسيته الفائقة جعلته أكثر تأثراً بما حوله، "إنّه يفعل بسرعة، ولكنه يحب ببطء...، إنّه عنيف حين يختلف، مجادل حين يناقش، رقيق حينما يحب"^٧. إنّ هذه الثنائية الأليمة لم تجعل ابن حزم ينعم باستقرار في حياته فقد ظل حائراً بين حبّه وحربه.

^١ - انظر: أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٧٧.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم، مقدمة إحسان عباس ص ١٧٦.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٩١.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٣.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٧.

^٧ - عوض: متردون لوجه الله ص ٢٩-٣٠.

أما الدعابة، فإنها وإن كانت مستغربة على صاحبنا فإن ميلاً كبيراً لها كان يغالبه ابن حزم ويقاومه، فقد كان يكره أن يُعرف بها، يقول: "كانت في عيوب، فلم أزل بالرياضة وإطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه،... ومنها دعابة غالبية، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر"^١.

وقد يصل به مزاجه إلى الضحك من أقوال المقابل، بدون سخرية أو استهزاء؛ "ولقد أضحكني قولك..."^٢. ومرة يناظر ابن حزم أحد الخصوم، والذي يريد من ابن حزم إثبات أن الناس خلقوا من ذكر واحد وأنثى واحدة، ولم يخلقوا من مجموعة من الناس الذين تناسلوا، فيجيبه ابن حزم بمزاج أقرب إلى الهدوء والسخرية الواضحة: "أترى العالم إذا خرج دفعة، أخرج فيه الحوامل يطلقن والطباقيون قعود على أطباقهم يبيعون التين والسرقين، فضحك، وعلم أنني سلكت به مسلك السخرية في قوله الفاسد"^٣. أما الاستهزاء الحقيقي فأكثر ما يكون لاذعاً حين يوجهه لغير المسلمين، خاصة للذين يطعنون في الإسلام.

وإذا تركنا مواضع الجدل والخلاف، وجدنا صاحبنا وفيّاً غاية الوفاء، مرفه الحس، لا يكاد ينسى ودّاً. وكان حين ينظر حوله، فلا يجد صديقاً يثق به، تزداد وحشته وغرْبته، حتى أولئك الذين كان يصافيههم الود (كابن شهيد) وقاضي الجماعة (عبد الرحمن بن بشر)، يقضيان نحبهما، وينقلب عليه ابن عمه ورفيقه (أبو المغيرة عبد الوهاب)، فتوحش الدنيا عليه، وينعكس كل ذلك على مزاجه وشعوره^٤.

وبالطبع، لا يمكن أن نصف ابن حزم بعدوانية المزاج، فثمة وفاء فريدٌ يَكُنّه لأصحابه؛ "أما بعد يا أخي يا أبا بكر، سلام عليك، سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي، ثم لقيك في حال سفر ونقلة، ووادّك في خلال

^١ - ابن حزم: مداواة النفوس ص ٣٨-٣٩.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٨٨.

^٣ - ابن حزم: الفصل ص ١/٧١.

^٤ - انظر: الحاجري: ابن حزم صورة أندلسية ص ١٨٨.

جولة ورحلة، فلم يقض من مجاورتك أرباً...^١. بل إنَّ هذا الوفاء والود كان يحمله ابن حزم لكل من زاد ودافع عنه؛ "وإني لأدعو الله لهم مدى عمري"^٢.

وقد غلب على ابن حزم اليبوس والجفوة، فلم يغلب عليه تناول المسائل الدينية من نظرة روحانية بحتة، الأمر الذي جعل تناوله لتلك المسائل فقيراً من العاطفة الدينية، ولا يمنع هذا بعض الاستثناءات كأن يوجد مثل هذا المزاج الخائف الخاشع لله؛ "فوالله إنَّ أحدنا يستشنع موقف جنابيته أو موقف قصاصه بين يدي مخلوق ضعيف، فكيف بين يدي الخالق..."^٣. ومرة يذكر النار في مناظرته، فيفزع منها، ويردد: "اللهم عياذك، عياذك، عياذك من ذلك"^٤.

أمّا ثقته بنفسه فقد بلغت حدّاً عظيماً، فلم يهضم نفسه حقها، ولا خجل من التصريح بعلمه واطلاعه الواسع، ولم يتردد في حصر الحق بما يقول، فقد كان مطمئناً أنّه على الحق، وأنه لا يأتيه الباطل أو الظلال؛ "إني أريد أن أقول قولاً يُعذني الله من أن أقوله مفتخراً أو ممتدحاً، إني والله لست بمبخوس الحظ من هذا العلم..."^٥. فلم يكن مزاجه الصلب وتمسكه بآرائه عيباً بنظره، بل كان يراه فضيلة تدل على الثبات؛ "ونسأله الثبات على ما أنعم به علينا من الحق"^٦. واستطاع بذلك أن يضع نفسه في الحدّ الفاصل بين الغرور والثقة، فقد عرف قدر نفسه، وأنه بذل جهده وطاقته في تحصيل العلم؛ "وأمّا نحن فلا نفني ليلنا ونهارنا، ولا نقطع أعمارنا والله الحمد إلا بتقيد أحكام القرآن... لا تقدر على إنكار ذلك، وإن رغم أنفك"^٧. وكان يعلم أنّ مبلغ علمه واسع؛ "وأمّا نحن فقلنا: قد أحطنا -والله الحمد- بكل ما يحتجّ به المخالفون والموافقون"^٨. من أجل ذلك كان يعدُّ تأليفه "في غاية الحسن، لنا خطر السبق في بعضه"^٩.

وقد كان يعلم أنّه لم يؤت العلم وحسب، بل رُزق معه الفهم الدقيق؛ "والله الحمد على ما وهب من قوة الحسّ وتمام التمييز"^{١٠}. وكان يعتقد أنّه رزق فوق العلم والفهم،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٩١.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٢١.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٢١.

^٨ - المصدر نفسه ص ٣/٩٢.

^٩ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٨.

^{١٠} - المصدر نفسه ص ٣/١٢٤.

رشاداً وهدى؛ "ونحن نحمد الله تعالى على ما منّ به علينا من الجري على سنتهم"^١. من أجل ذلك كله كان يرى أنّ الحق معه، وأنّ ما ينطقه ويقول به هو الحق، فإذا أجاب - مثلاً- قال: "فالجواب -وبالله التوفيق- إنّنا هكذا قلنا، وهو الحق عند الله، وكل من قال غير هذا فمخطئ عند الله عز وجل بلا شك"^٢.

ويرى كذلك أنّ فهمه هو الفهم الصحيح بالضبط؛ "وهذا الذي قلنا هو المفهوم من نفس الآية دون تزيد ولا انتقاص ولا تبديل"^٣، لذا تكثر عنده استخدام عبارات مثل: "فثبت يقيناً أنّ..."^٤، و "هذا بيان لا إشكال فيه أصلاً"^٥، و "إنّنا هكذا قلنا، وهو الحق، ومن خالفه أخطأ بيقين"^٦.

ومن النادر أن تجد لابن حزم كلاماً يدل على تواضعه، مثل هذا الكلام: "ولعمري إنّني لأفقر منكم إلى قبول ما أوصيتكم به، وأحوج إلى استعماله، فإني والله أعلم من عيوب نفسي أكثر مما أعلم من عيوب كثير من الناس ونقصهم"^٧.

وهكذا، فقد كانت ثقة ابن حزم بنفسه عظيمة لا يفوقها شيء، وقد تراوح مزاج ابن حزم بين الهياج والهدوء، فكان غالبه عكراً نزقاً، وبعضه الأقل رائقاً صافياً، معطياً الفرصة لمشاعر الودّ والوفاء أن تنسأل على لسانه وقلمه.

٢- أبرز مناظري ابن حزم

لن يضطلع هذا الموضوع بمتابعة جميع مناظري ابن حزم، لأنّ مثل هذه الدراسة ستطول، وستحتاج إلى جهد مستقل، لكننا سنكتفي بإيراد أبرز هؤلاء المناظرين. ربما تعود بدايات مناظرات ابن حزم إلى تلك المناظرة في مجلس (ابن واجب)^٨ بقرطبة، مع المقرئ (مكي بن أبي طالب)^٩ حول مسألة (هل أسقط عثمان -رضي الله

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٤.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٤٥.

^٤ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٤٩.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١١٣.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٨.

^٨ - عمر بن محمد بن واجب، من أهل بلنسية، يكنى أبا حفص... وكان صاحب أحكام بلنسية، ومن أهل الفضل والجلالة... توفي قريباً من السبعين والأربع مئة وسبعمائة نحو الستين. بشكوال: الصلة ص ١٥-٢/١٦.

^٩ - مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي المقرئ، يكنى أبا محمد، وأصله من القيروان، سكن قرطبة... كان، نفعه الله، من أهل التبصر في علوم القرآن والعربية... قدم إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين، ثم جلس للإقراء بجامع قرطبة... توفي، رحمه الله، يوم السبت، ودفن ضحى يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربع مئة. بشكوال: الصلة ص ٣٧٣-٣٧٥/٢.

عنه- ستة أحرف من جملة الأحرف السبعة المُنزَل بها القرآن الكريم؟)، ومناظرة أخرى حول مسألة (من أفضل الخلق كله بعد الملائكة والنبیین؟).

وقد حدثت مناظرة بين ابن حزم و(الليث بن أحمد بن حرفش العبدي)^١ بقرطبة حول إتباع أنس بن مالك، وقد أخبر ابن حزم بهذه المناظرة فقال: "وقد عارضت بنحو من هذا الكلام الليث بن حرفش العبدي في مجلس القاضي عبد الرحمن بن بشر^٢ رحمه الله، وفي حفل عظيم من فقهاء المالكيين، فما أحد منهم أجاب بكلمة معارضة، بل صمتوا إلا قليل منهم أجابوني بالتصديق لقولي"^٣.

كما ردّ ابن حزم على (عبد الحق الصقلي) برسالة سماها: (الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي)، كما حدثت مناظرة أقرب إلى المنازعة، بينه وبين فقهاء (المرية) حول اتجاه القبلة^٤. ونشبت كذلك خصومة بينه وبين (محمد بن القاسم بن الفتح الريوالي)، وقد سَفَرَ في هذه المناظرة (محمد ابن الدباغ)^٥. وفي (ميورقة) ناظر ابن حزم قاضياً وفقيهاً مالكياً اسمه (أبو عبد الله بن عوف)^٦. ثم جاء بعده فقيهُ مالكي آخر، ناظره ابن حزم، وهو (محمد بن سعيد)^٧ من (ميورقة) أيضاً، وهو الذي طلب معونة الباجي^٨.

كما ناظر ابن حزم (عبد الملك الخولاني)^٩. وردّ (أبو عمر بن عبد البر) على ابن حزم في مسألة تارك الصلاة عمداً بكتاب أسماه (الاستذكار)^{١٠}. ولا يمكننا إغفال ردّ ابن

^١ - الليث بن أحمد بن حريش العبدي، من أهل قرطبة، يكنى أبا الوليد. كان في عداد المشاورين بقرطبة، وكان عالماً بالرأي، وذا نصيب وافر من علم الحديث واسع الرواية... وكانت وفاته في عقب صفر سنة ثمان وعشرين وأربع مئة. بشكوال: الصلة ص ٢/٩٩.

^٢ - عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية، قاضي الجماعة بقرطبة، يكنى أبا المطرف، ويعرف بابن الحصار... كانت مدة عمل ابن بشر في القضاء اثنتي عشرة سنة وعشرة أشهر وأربعة أيام. وتوفي، رحمه الله، ودفن يوم السبت للنصف من شعبان سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة. بشكوال: الصلة ص ٤١٨-٤١٩/١.

^٣ - ابن حزم: الإحكام ص ٢/٢٧٥.

^٤ - انظر: القدوري: الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب ص ٢٨٥-٢٩٥.

^٥ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/١٢.

^٦ - محمد بن عبد الرحمن (بن محمد) بن عوف: أبو عبد الله الفقيه، تفقه بقرطبة وسمع بها وبغيرها... وكان في الفقه إماماً، وهو من بيت رئاسة وجلالة في الدنيا وتصرف السلاطين، وكفّ بصره... توفي أبو عبد الله بن عوف الفقيه في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة. الحميدي: جذوة المقتبس ص ٦٧.

^٧ - محمد بن سعيد من أهل ميورقة يكنى أبا عبد الله... وقعد لإقراء الفقه والاصول ولما دخلها [ميورقة] أبو محمد بن حزم كتب ابن سعيد هذا إلى أبي الوليد الباجي فسار إليه من بعض سواحل الأندلس... ابن الأبار: التكملة ص ١/٣١٦.

^٨ - انظر: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ٥٤.

^٩ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١/١٤. وعبد الملك بن سليمان الخولاني، يكنى أبا مروان. محدّث سمع بالأندلس، وإفريقية، ومصر، ومكة. ذكره الحميدي وقال: سمعنا منه بالأندلس الكثير، ومات بها قبيل الأربعين وأربع مئة بجزيرة ميورقة، وكان شيخاً صالحاً. بشكوال: الصلة ص ٤٥٦-١/٤٥٧.

^{١٠} - المصدر نفسه ص ١/٤٨.

حزم على ابن عمه (أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم) ^١، وردّه كذلك على قصيدة (نقفور فوقاس) إمبراطور الروم بنظم شعري.

وفي مناظرته (لابن البارية) يستتیب ابنُ حزم هذا الرجل، لأنّه يراه قد دخل في الكفر ^٢. وقد ردّ على أبي محمد في حياته (أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني) ^٣ و(ظاهر بن مفوّز) ^٤. كما ردّ عليه أيضاً (أبو بكر بن مفوّز) ^٥.

وقد كان لابن حزم مجالس مناظرة مع كثير من الفرق الإسلامية، والفرق الكلامية والدهرية، ويذكر أنّه كلم رجلاً دهرياً فقال له: "هل تعرف شيئاً إلا ما يعرفه عقلك..." ^٦. أمّا النصاري فكانوا إمّا محاربين وإمّا معاهدين تصالحوا مع الممالك والإمارات العربية، ثمّ ما لبثوا أن حاربوا المسلمين في إطار مشروع الاسترداد، أمّا الذين ناظرهم ابن حزم من النصاري فهم الذميون المقيمون بدار الإسلام ^٧.

٣- ابن حزم والباجي

ويحسن بنا أن نتوقف عند واحد من أهم مناظري ابن حزم، وهو (أبو الوليد الباجي) ونرى من هو هذا الرجل؟ وما هي طبيعة المناظرات بينه وبين ابن حزم؟ وما هي محاورها الرئيسة؟ وما مآلها؟

في البداية، نوّكد أنّه لم يصلنا شيء من تلك المجالس المنعقدة للمناظرة بين ابن حزم والباجي، رغم أنّ صييت هذه المجالس ذائع مشهور، فقد ذكر (ابن حجر) في (اللسان) أنّها مسجلة في جلد ^٨، وذكر (أبو تراب الظاهري) أنّه اطلع على مخطوطة في الهند تضم هذه المناظرات ^٩، وربما يسعفنا (عبد المجيد تركي) الذي حاول تصور هذه

^١ - عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم بن المغيرة، الوزير، الكاتب من المقدمين في الأدب والشعر والبلاغة، وهو ابن عم الفقيه أبي محمد بن حزم... مات أبو المغيرة قريباً من العشرين وأربعمئة. الحميدي: جذوة المقتبس ص ٢٩١-٢٩٢.

^٢ - انظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢٦.

^٣ - عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأموي المقرئ، المعروف بابن الصيرفي، من أهل قرطبة من ربض قوته راشه، منها، سكن دانية، يكنى أبا عمرو... قدم الأندلس واستوطن دانية حتى عرف بها. وكان أحد الأئمة في علم القرآن وروايته وتفسيره... توفي أبو عمرو المقرئ بدانية يوم الاثنين في النصف الثاني من شوال سنة أربع وأربعين وأربع مئة. بشكوال: الصلة ص ٢٠-٢١/٢.

^٤ - انظر: الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٤-١٥/١. طاهر بن مفوّز بن أحمد بن مفوّز المعافري، من أهل شاطبة، يكنى أبا الحسن... وكان من أهل العلم، مقمّماً في المعرفة والفهم، عني بالحديث العناية الكاملة، وشهر بحفظه وإتقانه... توفي، رحمه الله، يوم الأحد لأربع خلون من شعبان سنة أربع وثمانين وأربع مئة. بشكوال: الصلة ص ١/٣٢٦.

^٥ - المصدر نفسه ص ٢/٥٨. محمد بن حيدرة بن أحمد بن مفوّز المعافري، من أهل شاطبة، يكنى أبا بكر... وكان حافظاً للحديث وعلله منسوباً إلى فهمه، عارفاً بأسماء رجاله وحملته، متقناً لما كتبه، ضابطاً لما نقله. وكان من أهل المعرفة بالأدب واللغة والعربية والشعر ومعاني الحديث... توفي في ربيع الآخر سنة خمس وخمس مئة، ودفن بالربض. بشكوال: الصلة ص ٢٠١-٢٠٢/٢.

^٦ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٩١.

^٧ - انظر: مبارك: منهج ابن حزم في قراءة نصوص الكتاب المقدس ص ٦.

^٨ - الظاهري: ابن حزم خلال ألف عام ص ١٤/١.

^٩ - انظر هامش المحقق (أبي تراب الظاهري) في: الشرقاوي: رسالة راهب فرنسا ص ٣٦.

المناظرات^١، وخصص لها كتاباً أسماه (مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي) ترجمه (عبد الصبور شاهين).

ومن الضروري أن نتعرّف على خصم صاحبنا ومناظره الأشد، فقد كان الباجي من أسرة من (بطلوس) أقامت أول الأمر في (باجه) بالبرتغال، ثم استقرت نهائياً في قرطبة، وهناك ولد (أبو الوليد سليمان بن خلف) عام (٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م) وتلقى تعليمه الأول في قرطبة، ثم في شرق الأندلس، ثم غادر إلى المشرق في رحلة علم استغرقت ثلاثة عشرة عاماً^٢. وهناك في بغداد، أتصل أول أمره بأعلام المذهب المالكي من الطبقة التاسعة، أي آخر الأجيال المهمة في العراق، كما حضر على شيوخ المذاهب السنية الأخرى، وعلماء الحديث والفقه^٣. ثم عاد بعد غياب إلى الأندلس، وقد أكمل زاده العلمي واستعد لفتح جديد، في علم الكلام، بما يملكه من تكوين أشعري، وفي علم الأصول الذي برع فيه، مع ثقافة جدلية عالية تلقاها في المشرق^٤.

وقد اشتهر الباجي بالمناظرات والردود، ولعل من أشهر ردوده رده على رسالة راهب فرنسا، والتي بعث بها هذا الراهب مع مبعوثين إلى أمير (سرقسطة) (المقتدر بالله)، يدعوه فيها إلى الدخول في الدين النصراني، ويشرح له قواعده ومحاسنه، فكلّف الأمير الباجي بمناقشة المبعوثين والرد على الرسالة. وقد تضمن الردّ شرحاً للبواعث النفسية للراهب التي كانت وراء ارساله رسالته تلك، وفند فيها دعوى إلهية عيسى عليه السلام، ودعا فيها الراهب للدخول في الإسلام^٥.

وفي بلده كان يسيطر الباجي وحده - تقريباً - على الحياة الفكرية، فقد برز كمتخصص في الحديث والأصول^٦، وقد كان الباجي يملك عقلاً ناقداً شديداً للقلق، دائم البحث عن الحقيقة، وفوق ذلك كان رجلاً عصامياً، معاشياً لجميع المذاهب عن قرب^٧. وقد قال عنه ابن حزم: "لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم"^٨.

^١ - انظر: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ١٩-٢٠.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٦٩-٧٤.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ٧٤-٧٥.

^٤ - انظر: الباجي: كتاب المنهاج ص ١٩ م.

^٥ - انظر: الشرقاوي: رسالة راهب فرنسا ص ٣٨-٤١.

^٦ - انظر: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ٦٧.

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٥٩.

^٨ - المقرئ: نفح الطيب ص ٦٨-٦٩.

وقد لاحظ الباجي شهرة ابن حزم الواسعة، وتأثيره الواسع بالناس، وتعليمه للمذهب الظاهري، مع عجز واضح من علماء المالكية الذين لم يجاروه في استخدام طرق الجدل، لافتقارهم إليها أصلاً. وهذا شجّع (محمد بن سعيد) الذي جادل ابن حزم وعجز عن إفحامه بمحضر والي جزيرة ميورقة (ابن رشيق) -على الاستعانة بالباجي الذي كان في تلك السنة (٤٣٩ هـ) يعيش على أحد شواطئ إسبانيا^١. "ولمّا قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم حلاوة، إلا أنّه كان خارجاً عن المذهب، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته، وكلامه،... فدخل إليه وناظره وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة"^٢.

فإذا انصرفنا عن هذه الإرهاصات، واتجهنا إلى طبيعة المشكلات التي كانت مدار المناظرات، فإننا يمكننا النظر إليها على أساس النزاع بين (الحرفية) و(الغائية) فهما حجرا الزاوية في تلك المناظرات، فالحرفية المتمترسة وراء النصوص هي ما يدين به ابن حزم، أما الغائية والتوسع في فهم مقاصد الشريعة، فكانت هي ما يدافع عنه الباجي. وقد اختلفت تبعاً لذلك طبيعة معالجة مصادر التشريع، ففي مجال القرآن الكريم والسنة النبوية ستثار مشكلات في التفسير، خاصة في صياغة فعل الأمر، وفي التصرف حيال وجود تعارض أو نسخ في النصوص، كما ستبرز مواقف متباينة في قبول أخبار الآحاد أو المرسلة، وفي القيمة الأصولية للحديث ولعمل أهل المدينة، ومع هذا تبقى المشكلات في هذين المصدرين (القرآن والسنة) أقل شأنًا من غيرهما، لما يتصفان به من وضوح وموضوعية.

أمّا المشكلات الأكبر، فستثار عند الوقوف عند قضايا غير متفق عليها، كالإجماع والقياس^٣، ففي الإجماع ليس هناك اتفاق في نظرة الفقيهين إلى عناصره، وشروط تحققه وزمانه. أمّا القياس، فرغم معالجة الطرفين له موضوعياً، إلا أنّ الموقف المبدئي الرافض له عند ابن حزم جعل المناظرة أكثر تعقيداً.

أمّا مآل المناظرة، فالذّارج عند كثير من الدارسين أنّها انتهت بانتصار الباجي، والواقع أنّ هذه الشهادة "على الرغم من أنّ الذين ردّوها هم خصوم ابن حزم من المالكية، في عصر المرابطين، فإنّ المؤرخين وكُتّاب السير في العصر اللاحق ينقلونها،

^١ - انظر: ابن الأبار: التكملة ص ١/٣١٦. وانظر أيضاً: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ١٩-٢٠ و ٦٠.

^٢ - المقري: نفح الطيب ص ٦٧-٦٨.

^٣ - انظر: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ٩٥.

سواء أكانت على صورتها الأولى، أم في صيغة أكثر اعتدالاً تحاول أن تبدو أكثر حياداً، وهي أخيراً لم يطعن فيها أنصار الفقيه الظاهري، وبالأحرى لم يطعن فيها المتعاطفون معه^١.

^١ - انظر: تركي: مناظرات في أصول الشريعة ص ٦٤.